للأديب العالمي

تساو ون شيوان

أمطار شجرة العطر

ترجمة رضوى إمبابي

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Telegram:@mbooks90

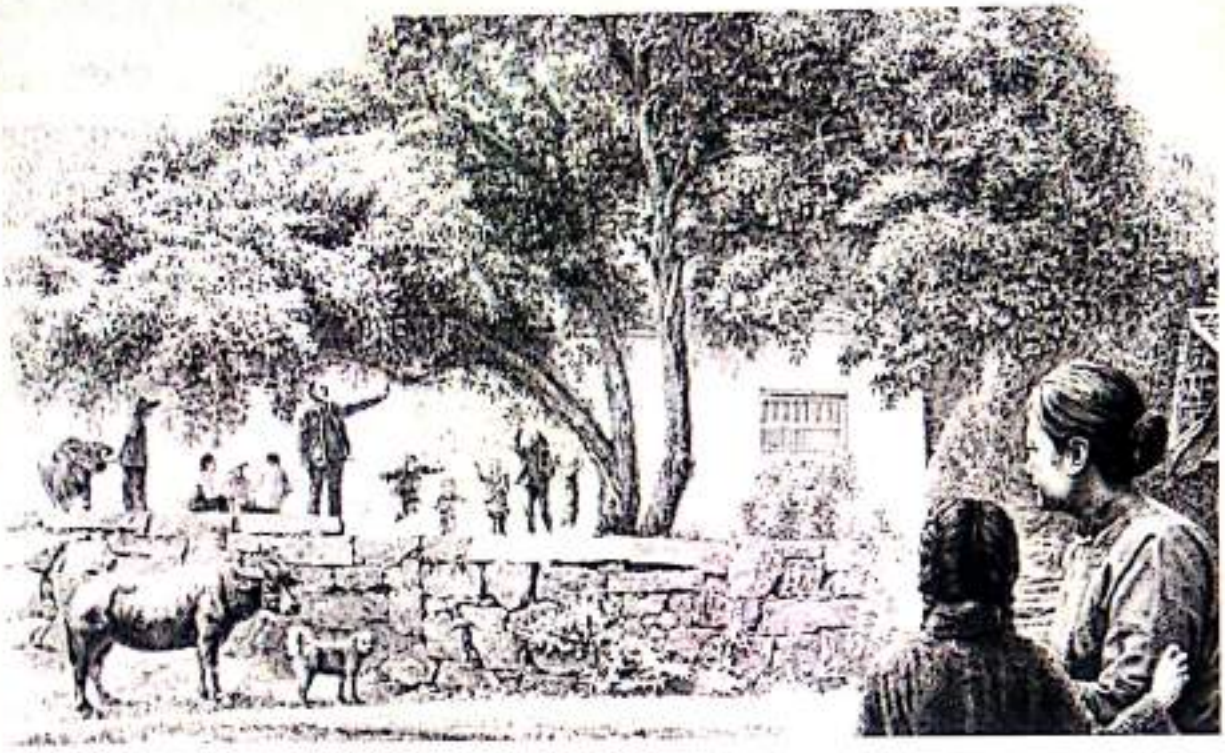

جمعتُ في هذا الكتاب نوفيلات وقصصًا قصيرة... قضيت آخر عامين من حياتي أروج في كل مكان لـ «الحس المعرفي للقصص القصيرة»، فلن أنسى أبدًا ذلك العام الذي بدأت فيه الإبحار حيث تدربت أولًا على جمع مواد لتأليف القصص القصيرة، والجهد الذي بذلته ساعدني لاحقًا على جمع المواد التي ألفت منها سلسلةً كاملةً من الروايات.

تساو ون شيوان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقدمة

أنا الصياد

تساو ون شيوان

Telegram:@mbooks90

أرى أمام عينيّ بحرًا كبيرًا واسعًا أبديًا، هو بحر الحياة الكبير، وأنا صياد يركب قاربه الصغير ويظل مبحرًا في بحر الحياة إلى الأبد، مثل الصياد الكوبي الشيخ الكبير سانتياغو(١)، ولكن الفرق بيننا أنه لم يذهب إلى البحر منذ فترةٍ طويلةٍ، وقد خرج هذه المرة ليثبت للآخرين أنه ليس مُسنًا وما زال قادرًا على الصيد، ربما تكون هذه المرة الأخيرة التي يذهب فيها للصيد، فحين يعود إلى الميناء وهو يحمل هيكلا عظميا لسمكة المارلين، لن يخرج للصيد مجددًا؛ أما أنا فسأظل هائمًا في بحر الحياة الواسع اللامحدود للأبد.

سأبحر ليل نهار دون أن أفرق بين سواد الليل وضوء النهار، أبحر بروحي وأُذني وأنفي وعينيّ. همس العشاق، وصياد عاد خالي الوفاض، وسرب طيور تُحلّق فوق قمم الجبال، وأطفال يركضون في الزقاق، نظرة عينٍ، وحوار من جملتين، وخيوط السحاب البيضاء الرفيعة في السماء، وضجيج الأسواق، وهدوء المقابر... كل هذه الأشياء ربما تقع في شبكتي أثناء رحلة الصيد. ولكني بالطبع أختار ما أصطاده طبقًا لحدود عالم الفن، مثلما فعل سانتياغو في النهاية، فلم يعد للميناء إلا بعدما نجح في صيد سمكةٍ كبيرةٍ ترضي غروره.

إن الصيد هوايتي ومهنتي، فأتطلعُ إلى الحياة وأمتلك مِزاجًا جيدًا لها. أطلقت مفهومي عن الحياة التي دومًا نتحدث عنها كثيرًا: إن ما يُطلق عليه الحياة هو أن تعيش وقلبك ينبض بها. فأرى الحياة ليست مجرد اسمٍ بل فعل. أركب قاربي الصغير وأتجول في بحر الحياة بلا كللٍ ولا ملل. أحب كل شيء في الحياة؛ أبديتها وتقلب أمواجها وخطوطها المتعرجة، ورغبتها في التدمير ونيتها الطيبة في أخذ الناس لمكانٍ بعيدٍ، ولكني لست مجرد عاشق عادي للبحر، بل كاتب. فالبحر لم يعطني المتعة والدافع للحياة والإلهام فحسب، بل أهداني بسخاء كل ما يحتاجه الكاتب من قصص ومواد أدبية. حصلت على كل هذا بعد رحلة صيد سرت فيها بكل جد ومثابرة، فلم أعتمد على المواقف التي ربما يصادفها الصيادون الآخرون، لم أنتظر أن تقفز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السمكة في قاربي من تلقاء نفسها.

يحتاج الصيد إلى الصبر والمهارة، ولكن أكثر ما يحتاجه هو الإخلاص، فعملت على تنمية مهاراتي وقَسَوتُ على نفسي على مر عشرات السنين لصقل قدرتي على الصبر والإخلاص، لأنني لن أصل إلى المادة الأدبية -التي أرى أنه من الصعب الوصول إليها- لكتابة القصص القصيرة إلا بإمتلاك هذه الصفات. حين أستمع إلى قصص زملائي -الذين لم يتقدم بهم العمر بعد- يحكون عن عقبات ومواقف حيرتهم وجعلتهم عاجزين عن إيجاد حلٍ، أشعر أنني سعيد الحظ بسماع هذه القصص دون الوقوع فيها، فبسماعها أشعر أن بحر معرفتي يزداد ثراءً. لا أقلق بشأن قدرتي على تحويل هذه المواقف إلى قصصٍ ومواد للقارئ، ولكن ما أخشاه حقا أن تخذلني طاقتي ولا تسمح لي بهذا، أخشى أن يسرقني الوقت.

لا أكتفي بالإبحار ببحرٍ واحدٍ فقط، بل ببحرين شاسعين، هما بحر الحياة وبحر المعرفة. أدركت منذ فترةٍ طويلةٍ أن اعتماد الكاتب على بحر الحياة فقط، سيجعل من الصعب عليه صيد أي شيء أو حتى بدء الصيد. فإذا أراد الكاتب ألا تنطفئ بداخله الرغبة في تأليف القصص، فعليه الاستفادة من البحرين في آنٍ واحدٍ. وبمعنى آخر: ربما يكون بحر المعرفة أهم من بحر الحياة، فدونه قد يختفي بحر حياتك أو يكون فارغًا، ولا تستطيع صيد أي شيء منه. لن يمنحك بحر الحياة القدرة على الصيد، بل بحر المعرفة هو الذي ينمي هذه القدرة بداخلك. وقد قال الكاتب بورخيس إنه اعتمد في مؤلفاته على المعرفة التي حصلها من قراءة الكتب، وأعتقد أنه قال هذا تأكيدًا على مدى سمو المعرفة التي لا مثيل لها. فهذا الرجل ظل يبحر في بحر الحياة مستمتعًا بكل ما فيها حتى نسي العودة إلى المنزل، وعلى الرغم من فقدانه لبصره فإنه ظل يبحر وحيدًا بقاربه.

ولكن الكاتب همينغوي(2) قدم صورةً أخرى جعلت المبتدئين في الكتابة والتأليف يَكونون مفهومًا خاطئًا: إن الإنسان يستطيع الحصول على أي شيء يريده بمجرد الإبحار والغوص في بحر الحياة فقط. ففي اعتقادهم أن همينغوي يظل طوال اليوم يربي القطط ويزور الحانات والمقاهي، ويلعب ملاكمة الظل، ويذهب في رحلات الصيد البرية وصيد السمك ويركب الطائرات ويشارك في الخطوط الأمامية للمعارك تحت نيران المدافع، دون أن يدركوا أن تأليف الأساطير كأسطورة «الأسد المسن»(3) لا يأتي إلا بالجلوس في المكتبة للقراءة وللاطلاع. لم يتوقعوا أبدًا أن حب هيمنغوي للكتب لا يقل أبدًا عن حبه للحياة، فقد كان يقضي وقتًا طويلًا في القراءة للاستفادة من بحر المعرفة، هل تظنون أنه كان يحب صيد السمك، لذا استطاع تأليف قصة «الشيخ والبحر»؟ لا هذا مستحيل، إنه في الحقيقة قارئ جيد، والقراءة والمعرفة جعلته

صيادًا ماهرًا قادرًا على الاستفادة من بحر الحياة الكبير.

إن بحر المعرفة لا يساعدنا على اكتشاف بحر الحياة فحسب، بل ربما يقدم لنا ما يمكن تحصيله، ما بين كلمةٍ أو جملةٍ أو مفهومٍ، أو دافعٍ خفي لم يلاحظه المؤلف نفسه أثناء كتابة النص، كل هذه أشياء يصعب صيدها، وكثيرًا ما عشت مثل تلك المواقف المذهلة التي قرأتها من قبل في الكتب، لذا لا بدّ من الاستفادة من البحرين، فسأركب قاربي الصغير وأبحر في البحرين بحريةٍ، وبهذا فقط أكون قد وهبت حياتي كلها للصيد.

البحر واسع ممتد بعيدًا حتى السماء، وبه أشياء كثيرة يمكن صيدها، منها ما يمكن أن تُؤلف منه قصيدة شعر ومنها ما يُؤلف منه مقال، ومنها ما يُؤلف منه القص بأنواعه من روايات ونوفيلات وقصص قصيرة. وقد جمعت في هذا الكتاب نوفيلات وقصصا قصيرة، ركزت على جمع مادتهم أثناء رحلة صيدي. ولا أعرف لماذا لا يركز بعض الكتاب إلا على الحكايات التي يُؤلف منها الروايات فقط، دون الالتفات إلى الحكايات التي تُكتب منها النوفيلات والقصص القصيرة. أعتقد أن هذه ليست طريقة صيد جيدة، لذا قضيت آخر عامين من حياتي أروج في كل مكان لـ «الحس المعرفي للقصص القصيرة»، فلن أنسى أبدًا ذلك العام الذي بدأت فيه الإبحار، حيث تدربت أولًا على جمع مواد لتأليف القصص القصيرة، والجهد الذي بذلته لجمع هذه المواد ساعدني في جمع المواد التي ألفت منها سلسلةً كاملةً من الروايات لاحقًا.

إن البحر الكبير بأمواجه الهادئة أو العالية به أسماك كبيرة كالقرش والمارلين، وأسماك متوسطة كسمك التونة والسلمون وأيضًا أسماك صغيرة كسمك الصوري وسمك الكابلين. ليست الأسماك الكبيرة فقط هي التي تتميز بمذاقٍ لذيذ، بل الأسماك الصغيرة أيضًا مذاقها فريد لا يمكن الاستغناء عنه. والبحر الكبير السخي يجمع كل الأشياء التي يمكن صيدها، فلا نقدر على مفارقته لاتساعه وكرمه.

تعرفت على الرسام الكبير السيد «رن باو هاي» صدفةً، حين سمح لي محررو شركة «متعة الأطفال المحدودة للنشر والتوزيع» برؤية لوحاته المرسومة بالحبر الأسود لأول مرة، حينها ظللت أقلب في اللوحات الواحدة تلو الأخرى في صمتٍ تام، أذهلتني لوحاته، فلم أر لوحات مثلها منذ فترة طويلة. معظم اللوحات التي رأيتها على مدار السنوات الماضية هي لوحات إبداعيّة ملونة، ولم أقصد التقليل من هذه اللوحات مطلقًا، بل عقبت وأثنيت على بعضها، ولكني كنت أتمنى رؤية تلك اللوحات الواقعية ذات التفاصيل الكثيرة، بحيث يمكنك سماع صوت تنفسها، لذا وُلد بداخلي شعور فطري بالسرور فور رؤية لوحات السيد «رن باو هاي» المرسومة بالحبر، وتمنيت أن نعمل معًا لإخراج هذه السلسلة، وقد وافق على طلبي.

جميعنا صيادون، ولكن الذي يُفرّق صيادًا عن آخر هو طريقته في الصيد وفي التعبير عما وقع في شبكة صيده. وسأبحر معه في البحر الكبير، فالإبحار نعمة كبيرة في حياتنا.

كُتب في 6 أبريل عام 2020

---

(1) شخصية في رواية «الشيخ والبحر» للكاتب الأمريكي الشهير: إرنست ميلر همينغوي.

(2)مؤلف رواية: «الشيخ والبحر» وهو إرنست ميلر همينغوي والملقب بـ «البابا»، روائي وكاتب **قصة قصيرة** وصحفي ورياضي أمريكي.

(3)قصة من حكايات إيسوب، وهو أديب يوناني عاش في اليونان القديمة. تحكي القصة عن أسد التقمت منه كل الحيوانات بركله وضربه حين مرض واقترب من الموت، وهي قصة تقول حكمة بأنه مهما كان ماضيك صاخبًا، فلا تأمن إنتقام الآخرين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطائر الأسود

شعر صبي أحمق بجوع شديد؛ فانزلق من ضفة النهر وسقط بالمياه. ومن حسن حظه، مر عليه قارب يقوده جَد يربي غربان المياه، فأنقذه وأبقاه معه. وعلى الرغم من حماقة هذا الصبي، فإن الجد أحبه، وعاشا معًا قصصًا كثيرة، منها: قصة موت البحار الأسود.

- 1 -

«البحار الأسود» هو اسم أحد غربان المياه(1)، والآن صار العمر يتقدم به سريعًا.

صار يسبح بصعوبة يومًا بعد يوم، فلا يقدر على اللحاق بالقارب الصغير وفريق غربان المياه أثناء رحلته. اختفت قدرته على الصيد، فلا يستطيع صيد أي سمكة حتى في الأنهار الصغيرة الضيقة التي تكثر فيها الأسماك. غطس بكل قوته ولكن بلا فائدة، ولا أعرف إن كان هذا بسبب ضعف بصره لأنه صار مُسنًا، أم بسبب حركته البطيئة التي جعلت الضحية تشعر به فتفر هاربةً. وباختصار كان غطسه بلا فائدة، ثم أمسك فجأة بسمكة صغيرة في حجم الإبهام، فشعر بالخجل من نفسه، فلا يعرف أيعود بها إلى القارب ويعطيها للجَد أم يبتلعها هو، فعادة لا يُربط الحبل حول عنق غراب المياه جيدًا، مما يسمح له بابتلاع السمك الصغير مباشرة.

سبح غرابا مياه تجاه البحار الأسود مستغلين عدم انتباهه إليهما، وخطفا السمكة الصغيرة من فمه وابتلعاها على الفور.

شعر الجَد بخيط من الحزن يطفو فوق قلبه حين رأى هذا المشهد، وأغضبه جدًا تصرف هذين الوقحين، فرفع عصا الخيزران ولوح بها فجأة ففزعا ورفرفا بأجنحتهما وهربا سريعًا مذعورين.

لم يكن أمام الجَد سوى انتشاله وأخذه إلى القارب ليستريح، وواساه قائلًا: «لا تقارن نفسك

بهم فقد كبرت، إشترخ ولا تشعر بالأسف، فلا يوجد كائنٌ في هذا العالم لا يمر بهذه المرحلة، حتى البشر». وتذكر نفسه مع النطق بهذه الكلمات؛ فشعر بمرارة طفيفة في قلبه.

تجاهل غربان المياه البحارَ الأسود، بل كانوا دائما يسخرون منه. وحين يختار الجد أفضل سمكة ويعطيها له، ينعقون وكأنهم يلومونه قائلين: «كيف تختار أفضل سمكة وتعطيها له وهو لم يصطد سمكة واحدة؟». شعر البحار الأسود بالحرج، ولم يبتلع السمك، فوضعها له الجَد في فمه وقال: «لا تستمع لهم، إنهم بهائم، وسينالون عقابهم عاجلًا أم آجلًا».

أراد البحار الأسود أن يؤدي واجبه مثل أي غراب مياه، فغطس في ماء النهر، وحاول بكل قوته صيد سمكةٍ، ولكنه مهما حاول لا يستطيع الغطس بعمق أبدًا ولا الوصول إلى قاع الماء. كان في الماضي يغطس إلى الأعماق، ويشعر أن العالم تحت الماء أوضح وأنقى بكثير من العالم الخارجي، ولكنه يراه الآن عالمًا مظلمًا ضبابيًا، فلم يعد ير شيئًا تقريبًا تحت الماء، فحرك قدميه وكمش جسده، وتقدم إلى الأمام بمنقاره، حتى إستهلك كل طاقته، ولم يستطع الصمود، فصعد إلى سطح الماء شيئًا فشيئا. وشعر بدوار فترك جسده لأمواج المياه تحركها كيف تشاء، وأحس كأن العالم كله صار مجرد خيالٍ.

سيحتاج وقتًا طويلاً حتى يسترد وعيه، ولكن الجَد ذهب بعيدًا بقاربه ومعه بقية الغربان، وليس أمامه سوى اللحاق بهم بكل قوته، فلم يعد قادرًا على الغطس لصيد السمك.

نجح أخيرًا ذلك اليوم في صيد سمكةٍ، وعلى الرغم من صغرها، فإنها سمكة على أي حال. أراد إعطاءها لصاحب القارب، فأمسكها بفمه وتوجه بها إلى القارب.

هزت السمكة الصغيرة جسدها تحت ضوء الشمس، ما جذب انتباه غربان المياه الآخرين، فسبحوا الواحد تلو الآخر نحو البحار الأسود. يعرف جيدًا أنهم أتوا من أجل خطف السمكة الصغيرة من فمه، فسبح إلى القارب الصغير بأقصى جهده.

ولكن سرعان ما أمسكت به مجموعة من غربان المياه، والتفت حوله في دائرة، واقتربت منه وضغطت على جسده. وحين رأى الجَد هذا المشهد، دب بقدمه قائلًا: «هل أنت أحمق؟ فلتأكلها!».

ولكن البحار الأسود ظل ممسكًا بالسمكة الصغيرة في فمه، وسرعان ما سبح إليه بعض الغربان ووقفوا بجانبه، ثم رفرفروا بأجنحتهم ورفعوا رقبتهم لأعلى لسرقة السمكة الصغيرة منه، فسعى جاهدًا للاختباء منهم.

حتى جاء غراب مياه قوي، أخذ ينقر بفمه؛ فقسم السمكة الصغيرة إلى نصفين، ثم رفع عنقه وابتلع النصف الذي قطعه، فأرخى البحار الأسود فمه، وسقط منه نصف السمكة الآخر في الماء، فأكله أحد الغربان الآخرين في غمضة عين. ثم أسرع الجَد بقاربه الصغير تجاه البحار الأسود.

غضب البحار الأسود أخيرًا، ورفرف بجناحيه وبدأ الهجوم على ذلك اللص، فنعق عاليًا، وأخذ ينقره بمنقاره الصُلب.

تجمع الغربان وهجموا عليه، ونقروا رأسه وجسده، وفي لحظةٍ طفا ريش أسود وبُنّي كثير على سطح الماء. خارت قوى البحار الأسود تمامًا، فانكمش حول نفسه وتركهم ينقرونه كما يشاؤون؛ فصار كقطعة قماش بالية طافِية على سطح الماء.

وصل الجَد إليهم بقاربه، ولوح بعصا الخيزران؛ فتناثرت حبات الماء على سطح النهر، وأخذ يصيح ويسب غاضبًا، ففزعت غربان المياه كأنه هدم عشها، فتناثر رذاذ الماء من أثر ركضها.

إقترب الجَد بقاربه من البحار الأسود، واستلقى الصبي على سطح القارب لينتشل البحار الأسود من الماء ووضعه بالقارب. سقط ريش كثير من البحار الأسود بعدما نُقر، فصار قبيحًا. جثا الجَد على ركبتيه وظل يردد: «لماذا أنت أبله هكذا؟ لماذا أنت أبله هكذا...». ولمعت بعيني البحار الأسود نظرة عجز وحزن عميق.

- 2 -

نادى الصبي جَده بصوتٍ عالٍ في الثالثة ظهرًا من ذلك اليوم، قائلًا: «إنه... إنه... اختفى». نظر الجَد إلى الصبي في ارتيابٍ فقال الصبي: «البحار... البحار... البحار الأسود».

فحص الجد كل غربان المياه بدقةٍ، فاكتشف أن البحار الأسود اختفى بالفعل؛ فأدار رأسه ونظر إلى سطح الماء، فلم ير سوى مجموعةٍ من البط يسبحون متمهلين، ولا أثر للبحار الأسود تمامًا.

أشار الصبي بإصبعه إلى الطريق الذي يأتي منه البحار الأسود، لكي يلف الجَد قوس القارب ويذهب للبحث عنه، فأومأ الجَد له برأسه، وحمل كل غربان المياه الموجودين بالنهر على أحد أغصان الشجر، ثم أدار القارب، وتوجّه سريعًا إلى الطريق المشار إليه، وظل ينادي البحار الأسود طوال الطريق.

وقف الصبي على رأس القارب وتمايل جسده مع حركته، وظلّ ينادي البحار الأسود هو الآخر. ظل الجد والصبي يبحثان عنه حتى حل اللّيل، ولم يعد الجدُ قادرًا على دفع المياه بعصا

الخيزران، فتركها وجلس ليلتقط أنفاسه وهو يتمتم قائلًا: «أين ذهبت؟ أين ذهبت؟».

جلس الصبي على رأس القارب صامتًا يفكر، وأخذ يبحث عن البحار الأسود وسط المياه ولم يستسلم للأمر الواقع، بينما عم الهدوء والضباب على النهر الكبير.

انشغل الجد في تحضير طعام العشاء وقال للصبي: «لقد تقدم به العمر، فربما علق بشبكة صيد، مثلما حدث معه منذ عام، ولم يستطع تحرير نفسه، أو شعر أنه صار مسنًا ولا يريد إزعاجنا أكثر من هذا؛ فقرر الذهاب بعيدًا».

لم يتناول الصبي الطعام هذه الليلة على الرغم من محاولات الجد معه، وعلى الرغم من أنه لا يرى شيئا في الظلام، فإنه ظل يبحث عن البحار الأسود بإصرار.

لم ينم الجد، بل ظل يفكر في البحار الأسود، فلقد مرت سنوات كثيرة رحل معها عن الدنيا كلُّ غربان المياه الذين كانوا في عمر البحار الأسود، ولم يبق بصحبته سواه، وها قد اختفى اليوم. إنه بالنسبة للجد ليس مجرّد طائر من الطيور المائية، بل يعده إنسانًا، وظلت المشاهد التي جمعتهما معًا تظهر في رأسه مشهدًا تلو الآخر.

ولم ينم الجد إلا قبيل الفجر.

استيقظ الصبي فجأةً بعد سماع صوت البحار الأسود، كان صوتًا قادمًا من بعيد لكنه واضح، لم يعرف إن كان هذا الصوت حقيقيًا أم حلمًا، فجلس في الظلام وحبس أنفاسه واستمرّ في التنصت، ولكنّه لم يسمع سوى صوت الليل المظلم.

نهض الصبي ومر فوق جسد الجد بهدوء، وحاول قدر المستطاع كتم صوت الجرس المعلّق بمعصمه. صعد وخرج من وراء الشراع فرأى نصف القمر في اتجاهه للغروب في قلب المياه. أمسك عصا الخيزران بهدوء ليجذف بها ويبحر بالقارب تجاه صوت البحار الأسود، ولم يهمه إن كان هذا الصوت حقيقةً أم حلما.

يعرف الصبي كيف يمسك عصا الخيزران بمهارة ويقود القارب منذ فترة طويلة، بعدما علمه الجد خطوة خطوة. كان جسده الممشوق وعصا الخيزران الطويلة في يده، يجعلان الجد يشعر أن هذا الصبي بحار في الأصل، فهو يقبض على العصا ثم يغرقها في النهر حتى تصل إلى القاع ويجلس القرفصاء بمؤخرته الدائرية القوية ويدفع القارب بقوة فيسير إلى الأمام وتتناثر حبات المياه.

تحرك القارب وبدأت السماء تلمع وتُنير بضوئها بعدما كانت بنفس لون النهر ليلًا، ولكن في

الصباح صار الفرق بينهما واضحًا، ولا يلتحمان مقًا إلا بعيدًا. وفي غمضة عين، صار النهر قرمزيًا غامقًا، وظهر جزء صغير من قرص الشمس.

كانت طيور الصباح تطير منحدرة فوق القارب الصغير، بينما يتصبب الصبي عرقًا، وهو يقود القارب متجهًا للأمام في اتجاه الصوت الذي سمعه، فيعتقد أن البحار الأسود هناك ينتظر مجيئه هو والجد لإنقاذه.

استيقظ الجد وسأل الصبي: «إلى أين تأخذنا بالقارب؟»، فاكتشف أنهما غادرا النهر الكبير ودخلا أحد الروافد الكبرى.

أشار الصبي بيده إلى الأمام قائلًا: «هناك! لقد... سمعته... ينعق... سمعته ينعق...».

نظر إليه الجد بوجهٍ مرتابٍ قائلًا: «أسمعته ينعق؟»؛ فأومأ الصبي برأسه.

يعتقد الجد أن الصبي يفعل دائمًا بعض التصرفات الغريبة الغامضة، فتكون السماء خالية من أي شيء، ولكنه يشير إليها ويقول: «عصفورة!»، دون أن توجد أي عصفورة، وحين ينكر الجد ما رآه الصبي، لا يعرف من أين تأتي فجأة عصفورة تحلق بالفعل في السماء، على الرغم من أن الجد أمعن النظر للتو إلى السماء، ولم يكن هناك حتى أثر لأي عصفورة. اتبع الجد الصبي وتركه يقود القارب إلى الأمام بقلبٍ حائرٍ ما بين الشك واليقين.

مرت ساعة وما زال الصبي يقود القارب متجهًا إلى الأمام، فأوقفه الجد وقال: «توقف أيها الصبي، كيف يمكن لصوت غراب الماء أن يدوي بعيدًا إلى هذا الحد؟ هذا مستحيل، فلتدر القارب وترجع بنا إلى النهر»، ولكن الصبي لم يستمع إليه، واستمر في طريقه إلى الأمام بكل إصرار؛ فاتبعه الجد.

مرت ساعة أخرى، انهارت فيها قوة الصبي تمامًا، فترك عصا الخيزران ومدد جسده على القارب. وأخذ الجد عصا الخيزران ليجدف ويعود للنهر، ولكن الصبي ظل قابضًا عليها باستماتة، ولم يسمح للجد بتحريكها، على الرغم من عدم قدرته على الاستمرار في قيادة القارب إلى الأمام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يعرف الجد أيضحك أم يبكي، فقال للصبي: «هل ستترك القارب طافيًا هكذا؟».

فأجابه الصبي قائلًا: «إممم». واضطر الجد إلى الجلوس في مكانه لبعض الوقت.

ظل القارب ينجرف إلى الأمام، ولم يمر وقت طويل، حتى سار في إتجاه الشاطئ، وأخذ ينجرف إليه ببطء. وجلس الصبي شاردًا، وأدار رأسه يمينًا ويسارًا في حركة سريعة، ثم ظل يحرك رأسه ببطء وكأنه يضبط أذنيه في إتجاهٍ معين.

توقف القارب فجأة في ذلك المكان وكأنه ينصت هو الآخر لشيءٍ ما، ثم هبت رياح على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النهر. وأخيرًا ثبت الصبي رأسه في إتجاهٍ محدد، ولم يمر وقت طويل إلا وأشار بإصبعه تجاه أعواد القصب الكثيفة دون النطق بكلمة.

مال الجَد بجسده هو الآخر وحاول الإنصات ولكنه لم يسمع شيئا. قفز الصبي في النهر فجأة، وأخذ يزيح أعواد القصب التي تعترض طريقه؛ فأحدثت صوتًا عاليًا، واتجه إلى الأمام. وأمسك الجَد عصا الخيزران ودفع القارب الصغير بكل قوته وسط أعواد القصب متبعًا الصبي.

ركض الصبي فجأة إلى الأمام، وترك بقعًا كبيرة في الماء من أثر الركض، فاتبعه الجَد بقاربه الصغير. بدأت أعواد القصب المتناثرة تقل، ثم صرخ الصبي وأدار جسده ونظر إلى الجد وهو يشير بيده إلى الأمام.

قفز الجد من القارب، وركض نحو الصبي، وسرعان ما رأى شيئين ليسا ببعيدين يطفوان على سطح الماء؛ أحدهما فضي لامع، والآخر أسود داكن، وحين ركض الجد مسرعًا إلى ذلك المكان الذي يقف به الصبي، وجده راكعًا على ركبتيه أمام هذين الشيئين.

كان الشيء الفضي اللامع هو سمكة كبيرة، والشيء الأسود الداكن هو البحار الأسود المفقود. يبدو أن السمكة ما زالت على قيد الحياة، أما البحار الأسود فبدا أنه مات ولكن منقاره ما زال يحمل جسد سمكة كبيرة.

شعر الجَد بدوار وكاد يسقط في المياه.

أراد الصبي حمل البحار الأسود بين يديه، وحاول أن يجعله يترك السمكة الكبيرة العالقة بمنقاره، حاول حمله كثيرًا ولكنه لم يستطع.

أسرع الجَد بخطواتٍ متعثرة نحو الصبي ليساعده، ونجح أخيرًا في فصل السمكة الكبيرة عن منقار البحار الأسود.

حمل الصبي البحار الأسود وضمه إلى أحضانه، ولم يستطع حبس دموعه؛ فسالت على خديه دموع حب. لم يمت البحار الأسود، بل ظل يرتعش بين أحضانه، ثم رفع رأسه متعبًا، ونظر إلى الصبي ثم إلى الجَد بعينين سوداوين في حجم حبات الفاصوليا السوداء.

حركت السمكة ذيلها تريد الهرب، فأعطى الصبي البحار الأسود للجَد، وقفز نحوها مباشرةً؛ فسقطت دون مقاومة.

حاول الصبي كثيرًا أن يمسك بالسمكة الكبيرة ولكنه لم يستطع، وحين اعتقد أنه أمسكها في المحاولة الأخيرة سرعان ما أفلتت من يده مرة أخرى.

أمسك الجَد بالبحار الأسود وأعاده إلى كبينة القارب، ثم أمسك بحبلٍ وأدخله في فم السمكة الكبيرة وأخرجه من خياشيمها وربط عقده، ثم أعطى الحبل للصبي.

جر الصبي السمكة الكبيرة بالحَبلِ متوجهًا خطوة تلو الأخرى نحو القارب الصغير، ثم ساعد الجد ليزن السمكة، فكان وزنها اثنين وثلاثين جينًا(2)!

قال الجَد: «إنها أثقل من السمكة التي صادها المرة السابقة بربع كيلوجرام!»، ثم نظر إلى البحار الأسود مشلول الحركة داخل القارب وقال: «لماذا فعلت هذا؟ لقد كبر عمرك، أي قدرة تريد إظهارها أمامنا! فلن ألومك سواء صدت سمكة أم لا!».

وحينها نظر البحار الأسود إليه بعينين نصف مفتوحتين، ووجه يغلب عليه النعاس، فقد سقط ريش كثير من جسده وظهر جلده القبيح.

قال الجَد للصبي الأحمق متحسرًا: «صاد ذلك العام سمكة وزنها 31 جينًا، ولكن حينها كان ما زال شابًا! ثم يفاجئنا الآن ويصيد سمكة وزنها 32 جينًا! لقد كبر في العمر واقترب من الموت».

ثم مسح الجد دموعه بيده الخشنة.

- 3 -

ظل البحار الأسود عاجزًا عن تحريك أطرافه، وحاول النهوض ولكن لا فائدة. فقال له الجَد: «لقد استهلكت كل طاقتك، فكيف ستستطيع النهوض!». وظل القارب يبحر إلى الأمام في النهر الكبير.

لم يمر وقت طويل إلا ومرض الجَد مرضًا شديدًا، ولم يستطع النهوض لعدة أيام، لم يفعل شيئًا سوى الإتكاء على أحد جوانب كبينة القارب ليلاحظ الصبي أثناء انشغاله بإعداد الطعام ورعاية غربان المياه. ولأن الصبي قليل الخبرة، فقد كان مرتبكًا، ولكنه فعل كل شيء متمهلًا تحت إشراف وتوجيهات الجَد، ففرح الجد كثيرًا من أجله وفرح الصبي أيضًا، واستمر القارب في الإبحار إلى الأمام.

تهدأ حركة الماء مع الدخول إلى عمق النهر، فيسير القارب إلى الأمام بسلاسة.

تحسنت صحة الجَد تدريجيا، وبدا بحالةٍ لا بأس بها، ولكن لا أعرف لماذا بعدما تحسنت صحته، باع كل غربان المياه التي كان يربيها، ولم ينفق المال لشراء علاج، بل اشترى بجزءٍ بسيط منها بعض الطعام والأسماك الصغيرة من أجل البحار الأسود، ووضع الباقي في صرّة

نقوده الملفوفة حول خصره. لا يستطيع الصبي رعاية غربان المياه ولا إطعامهم مثل الجَد، ولكنهم على كل حالٍ يستطيعون إيجاد الطعام بأنفسهم في نهاية اليوم، أما البحار الأسود فلا يستطيع، ويجب شراء الأسماك الصغيرة لإطعامه.

ما زال البحار الأسود غير قادر على النهوض، بل يمكث طوال اليوم مغمض العينين في العش الذي أعد له منذ فترة طويلة، وكأنه يتذكر كل ما مر به في حياته. ويتناول الطعام بمعدلٍ لا بأس به.

قال الجَد: «تأكل ولا تقدر على العمل، هذا أمر طبيعي لكبار السن».

مرت الأيام ولم يبخل الجد أو يتردد في إخراج المال من صرة نقوده لشراء سمك كثير من أجل البحار الأسود، وظل طوال اليوم يطعمه حتى يتغذى جيدًا. والبحار الأسود لا يرفض الطعام.

ظل الجَد يبيع كل غربان المياه المتبقية، ويجتهد في الاهتمام بالبحار الأسود فقط. لم يفهم الصبي ما يفكر فيه الجد، ولكن الجد كان واضحًا مع نفسه، ويعرف جيدًا أنه لن يبقى في الدنيا كثيرًا، فلم ينخدع بحالته التي تحسنت مؤخرًا، وقدرته على النهوض والسير على شاطئ البحر، بل يشعر في قرارة نفسه أنه لم يبق لديه سوى قليل من القوة يستند إليها.

حياة الجَد كمصباح زيتي ذبلت شعلته حتى اقتربت من القاع، وعلى الرغم من أنها ما زالت مشتعلة، فإنها ستنطفئ فجأة بلا ميعاد.

عاش الجَد هذه الفترة هادئًا وديعًا، وكان يبتسم أحيانًا. ولكن عليه ترتيب كل شيء، قبل انطفاء شعلة حياته.

وحين يغرق الصبي في نومٍ عميقٍ ليلًا، يفتح الجَد عينيه وينظر إلى السماء خارج شراع القارب. ظل يتأمل تلك السماء والقمر والنجوم التي لا حصر لها لعشرات السنين، ولكنهم سرعان ما سيرحلون بعيدًا عنه ويغرق هو في ظلامٍ عميق لا نهاية له. إنه لا يخاف، فقد عاش كثيرًا ولا بد من الرحيل، لكنه ما زال قلقًا بشأن الصبي والبحار الأسود، أما بقية غربان المياه فيستطيعون صيد السمك، وإما سيصيرون من غربان المياه البرية، أو سيأخذهم شخص آخر ليربيهم عنده، ولكنه لا ينوي بيع ما تبقى، فيتمنى حين يرحل أن يرافقه بعضها إلى طريق الجنة.

اشترى الجَد للصبي حقيبة ظهر كبيرة من الطريق الذي يمر عليه القارب، ووضع بها بعض اللوازم اليومية وخبأ النقود في بطانة الحقيبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال للصبي في ذلك اليوم: «لا بد من إرساله إلى الطريق»، وبعدما أنهى كلامه ظل ينظر إلى البحار الأسود. لم يفهم الصبي ماذا يقصد الجد بكلمة «الطريق».

اشترى الجد من قارب البضائع زجاجة شراب وشمع، وأصر على شراء شمع أبيض وليس أحمر. وهز زجاجة الشراب أمام الصبي وقال: «ليست من أجلي».

أخرج الجد مجرفة لها يد قصيرة من مؤخرة القارب عند الغروب، ووضع الشمع الأبيض وعلبة الكبريت في جيبه، ثم انحنى وحمل البحار الأسود وطلب من الصبي أن يسنده حتى ضفة النهر.

طلب الجَد من الصبي أن يسنده حتى يصل إلى مكان يبعد قليلًا عن القارب، حيث شجرة كبيرة ببقعة واسعة من ضفة النهر، فقال الجَد للصبي: «احفر... احفر هنا»؛ فنظر الصبي للجَد في ارتياب.

فتح الجَد الزجاجة وفتح منقار البحار الأسود بكلتا يديه وأخذ يسكب الشراب في جوفه. شعر الصبي أن تصرفات الجد اليوم عجيبة: لم يحضر الشراب ليشربه هو، بل للبحار الأسود!

حاول البحار الأسود جاهدًا الهرب من زجاجة الشراب التي يضعها الجد في جوفه، ولكنه ثبته بيده فلم يستطع الإفلات منه.

قال الجَد: «اشرب... اشرب... لقد كبرت ويجب أن تذهب، فلتذهب وأنت سعيد. إنه قدرك، ولا يمكن الهروب من القدر، أنا أيضًا لا أستطيع الهروب من القدر. سألحق بك، فلتذهب أنت أولًا، لأنني لو ذهبت قبلك، ربما لا تستطيع اللحاق بي».

قال الجَد كلامًا غريبًا، ثم قال للصبي: «احفر، كيف لم تحفر بعد؟ احفر بعمق أكبر». ثم وضع البحار الأسود بهدوء في الحفرة.

رفرف البحار الأسود بجناحيه لينهض ويتوجه إلى القارب الصغير الطافي على سطح الماء، ولكنه لم يستطع، فتدلت أجنحته على الأرض ثم تدلى رأسه أيضًا.

قال الجد: «أتشعر بالنشوة؟ إنها العادة التي تحكمنا منذ آلاف السنين، فحين يكبر غراب المياه ولا يقدر على فعل شيء، نسكب الشراب في جوفه حتى يفقد الوعي تمامًا، ثم ندفنه في الأرض، وأنت تعلم هذا، فقد رأيتني من قبل وأنا أدفن الغربان الأخرى، وجاء الدور عليك هذه المرة».

لم يفهم الصبي الأمر بصورة واضحة، فأمسك بالمجرفة، ولكنه لم يستطع تحريك يده،

فأخذها الجد منه وقال: «لست قاسي القلب يا بني!»، ثم أخذ يحفر بكل قوته لفترة، ولكن تمخض جهده عن حفرة ضحلة؛ فأعطى المجرفة للصبي وقال: «احفر حفرة عميقة له».

أخذ الصبي المجرفة من الجد، وظل يحفر لاهثًا ويتطاير الرمل من جانبه، وجلس الجد بجانب البحار الأسود.

بدا البحار الأسود كأنه غارق في نومٍ عميقٍ، وتحت ضوء القمر لمع شعاع أزرق خافت بالريش الموجود على رقبته.

ما زال التراب يتطاير من الحفر، فخلع الصبي سترته وأخذ العرق يتصبب على جسده العاري.

ربت الجد على جسد البحار الأسود الراكض بلا حراكٍ وقال: «فلتذهب، وسألحق بك ونلتقي قريبًا». ثم نظر إلى الحفرة التي حفرها الصبي وقال: «توقف يا بني، يكفي هذا العمق»، ولكن الصبي لم يسمع كلامه وأخذ يحفر بكل قوته وكأنه مرموط(3) لا يعرف التعب.

حينها كان القمر قد اكتمل بدرًا فوق قمة الشجرة الكبيرة.

لم يترك الصبي المجرفة إلا بعدما أمسك الجد يده وقال: «فلتلق عليه نظرة أخيرة»؛ فأدار رأسه ونظر إليه.

هز الجد رأسه وحمل البحار الأسود الذي فارق الحياة، ووضعه برفق داخل الحفرة، ثم جلس وأخذ يجمع التراب الموجود خارجها بيده ليردمها. وخلال لحظات كان التراب الناعم قد غطى جسد البحار الأسود، ولا أعرف متى جلس الصبي وأخذ يشارك الجد في ردم الحفرة بالتراب بكلتا يديه، وأخذت الحفرة تمتلئ تدريجيًا بالتراب.

استراحا قليلًا، ثم أكملا ردم الحفرة، ولا يزال تراب كثير خارجها.

أمسك الجد بالمجرفة الحديدية وأخذ يربت بها على الحفرة، ثم يضع بعض التراب ويربت مرة أخرى، ثم كوّم التراب في النهاية على شكل تل وكأنها مقبرة. ولف حول هذا التل ممسكًا بالمجرفة يربت عليه بدقةٍ، وإذا وجد مكانًا به رمل زائد يزيله، وإذا وجد مكانًا يحتاج إلى رمل زاده، وكأنه يقوم بعملٍ مهم ودقيق.

لم يترك المجرفة حتى شعر أن المقبرة الصغيرة التي بناها جميلة المنظر. وكان المكان تحيط به بعض الأعشاب والزهور البرية، فقطف زهورًا كثيرةً ورشها فوق مقبرة البحار الأسود.

قلّده الصبي وقطف وروّدًا برية كثيرة ونشرها فوق مقبرة البحار الأسود.

أخرج الجَد من جيبه خمس شمعاتٍ بيضاء، وأخذ يغرسها واحدة تلو الأخرى في الأرض ثم أشعل عود كبريت وأخذ يشعل به شمعة شمعة، فكانت الشموع المضاءة نصف شفافة تشبه اليشم الأبيض الرقيق.

جلس الجَد وأخذ يربت على الأرض، وطلب من الصبي أن يجلس هو الآخر، وذبل ضوء الشموع شيئًا فشيئًا، ووضع الجَد ذراعه على كتف الصبي، وبدأ يهمس بالغناء. وحين انطفأ ضوء الشموع كانا ما زالا جالسين تحت الشجرة الكبيرة، ثم سمعا نعيق أحد غربان المياه الموجودين بالقارب.

- 4 -

حل الليل، فقال الجَد: «فلنعد»، ثم أمسك بقطعة طين وأخذ ينثر فتاتها على مقبرة البحار الأسود الصغير. وحاول النهوض عدة مرات ولكنه لم يقدر حتى سنده الصبي بذراعيه، وشده لأعلى حتى نهض أخيرًا وسار بتمهلٍ شديدٍ إلى القارب الصغير، فكانت خطواته بطيئة جدًا، لأنه يأخذ وقتًا طويلًا في كل خطوة يخطوها.

أسند الصبي الجَد على إحدى ذراعيه بينما أمسك المجرفة الحديدية بالذراع الأخرى، وأثناء السير احتكت المجرفة بالصخور الموجودة على ضفة النهر، فأصدرت صوت احتكاك المعادن وسط الليل الهادئ.

سار ضوء القمر بعيدًا، وكأنه طفل يريد العودة إلى بيته سريعًا.

تمدد الجَد بعد عودته إلى القارب، وظل يثرثر مع الصبي بصوتٍ ضعيف ولكنه هادئ ورزين. وشبك يديه ووضعهما فوق صدره، وفتح عينيه وسط الظلام، وإن رأيت عينيه نهارًا ستبدوان سوداوين كبيرتين وعميقتين جدًا بسبب نحافته الزائدة.

- «اقترب موعد رحيلي».

علم الجَد أن الصبي فهم الآن معنى الرحيل.

- «سأرحل مثلما قلت لك، ليس لدي بيت منذ الصغر، قضيت حياتي كلها أبحر في المياه، والآن أريدك أن تفعل شيئًا واحدًا من أجلي: فُك حبل القارب، وستجد بيتي أينما تأخذك الرياح، لا يوجد بالقارب شيء ذو قيمة، فلتتركه، ولكن احمل حقيبة الظهر، فبها النقود التي جمعتها، ولن أكون في حاجة إليها».

Telegram:@mbooks90

سكت الجَد لفترة طويلة، ثم حرك يده ببطء ووضعها على جسد الصبي، وأخذ يتحسس بطنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم مشى بيده حتى ربت على وجهه واستقر بيده على رأسه وقال: «أنت أيضًا سترحل. من حسن حظي أني التقيت بك يا بني، فلم أفكر قط في من سيرافقني حتى الموت».

مرت الأيام وامتنع الجَد عن الطعام والشراب، وظل ممددًا داخل كبينة القارب في هدوء. وظل الصبي يقود القارب ويضع الطعام لغربان المياه، ثم يجلس برفقة الجد، فيجلس بجانبه أو ينام.

صار الجد قليل الكلام، فلم تعد لديه القدرة عليه، وصار يفتح عينيه ويظل يتأمل السحب المتدفقة في السماء والطيور المحلقة بها.

وفي أصيل يوم من الأيام، بينما يجلس الصبي بجانب الجَد بعدما ظل منشغلًا بالعمل طوال اليوم، رفع الجَد يده بصعوبة بالغة ثم خبط بإصبعه فوق جبين الصبي عدة مرات وقال بصوت خفيض ولكنه واضح: «أنت لست أحمق».

أمسك الصبي إصبع الجد ووخز نفسه في صدره وقال: «أنا... أنا لست أحمق». ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة أتبعها بضحكات عالية، وابتسم الجد أيضًا بلا صوت، ثم تبدلت أحوال الطقس.

خرج الصبي من كبينة القارب ونظر إلى السماء، ثم أغلق مظلة الشراع التي كانت مفتوحة في أثناء النهار.

حل الليل وظلت الأمطار تسقط والرياح تهب، ولكنها لم تكن رياحًا عاصفة ولا أمطارً شديدة. واستمر الحال هكذا لأربعة أسابيع، فلم يكن هناك سوى صوت الرياح والأمطار وشق القارب للمياه.

استيقظ الصبي، ليس بسبب توقف الرياح والأمطار، بل أيقظه شعور ببرودة الجو داخل الكبينة.

تحسس الصبي جسد الجَد قبيل الفجر، حيث ما زال اللون الرمادي يربط بين السماء والأرض، فوجده باردًا تمامًا، لكنه لم يخف بل ظل نائمًا واقترب من جسده واستند إليه.

ظل الصبي ممددًا حتى أشرق الصباح، وأخذت الطيور تزقزق فوق أشجار ضفة النهر. ونهض وغطى الجَد باللحاف مثلما كان الجَد يفعل معه من قبل، ثم أعد الفطور وأكل حتى شبع.

لم يوقظ الصبي الجَد ليتناول الفطور، فهو يعلم جيدًا أن الجَد لن يتناول الفطور بعد ذلك أبدًا! وفك الحبل من حول رقبة غربان المياه المتبقية، وألقى بهم في النهر، ثم وضع لهم السمك

الذي صادته بالأمس، فأكلوه حتى التخمة!

جلس مرة أخرى بجانب الجَد، ووجد عماصًا على عينيه، فأحضر منشفة وبللها في ماء النهر، ومسح بها وجه الجد بحرص شديد، حتى صار نظيفًا، لا توجد به ذرة قذارة. وسرعان ما صفت السماء وسطعت الشمس من النهر فحفّلة بقطرات ماء النهر الكبير.

وضع الصبي الحقيبة على ظهره، وقفز إلى الشاطئ، وفك الحبل الذي كان معلقًا بإحدى الأشجار، ثم وجّه مقدمة القارب ودفعه بكل قوته ليسير في قلب النهر.

سار القارب سريعًا، فرفرفت غربان المياه بأجنحتها لتحتفظ بتوازنها.

لم يسر الصبي في طريقه على الفور، بل ظل جالسًا على الشاطئ الطويل، يتأمل قارب الجَد وهو يسير في النهر حتى اختفى تمامًا.

وقف الصبي واندفع في الاتجاه الذي اختفى وراءه القارب وقال: «أنا... أنا لست أحمق»، ثم ضحك ضحكة عالية، وأخذ يلوح للقارب بيده دون أن تسقط منه دمعة واحدة، فهو يعتقد أن يومًا ما سيأتي ويقابل الجَد ثانيةً.

كُتبت المسودة الأولى في التاسع من نوفمبر عام 2012، غرفة رقم 8108 مبنى رقم 42 بحديقة البرمجيات الصناعية بجيانفسو، فجرًا.

كُتبت النسخة المعدلة في الخامس من يناير عام 2013 بسكن العلم الأزرق بجامعة بكين، عصرًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذيل صغير

جين جين فتاةٌ غريبة الأطوار

جين جين، فتاةٌ غريبة الأطوار منذ أن كانت في رحم أمها؛ فقد مر على موعد ولادتها المفترض أكثر من أسبوع وهي ما زالت في رحم أمها تأبى الخروج، ثم مر أسبوع آخر، وبعد أن سيطر التوتر على الجميع، سمعوا صوت بكائها، وخرجت إلى هذا العالم. قالت جدّتها لأبيها للأم: «تمهلي، فهذه البنت ستلتصق بك مثل الصمغ على الأغلب».

ونستخلص من حديث الجَدة أنّ جين جين كاللّاصقة الطّبيّة الملتصقة بالأم منذ اليوم الأوّل لولادتها، وهي لا تترك حضن أمها دقيقةً واحدةً ليلًا أو نهارًا. فما إن تترك حضن أمها حتى تبكي بكاءً شديدًا يرقّق القلب، ولا يُحتمل سماعه، حتى يُظنّ أنّ سرعة بكائها ستقتلها! فما إن ترى عيني أمها مغلقتين، حتى تبدأ في البكاء، محرّكةً ساقيها يمينًا ويسارًا عشوائيًا، وأحيانًا يسبّب لها البكاء الاختناق، فيصير التنفس مثل حجرٍ ينحدر من أعلى جبلٍ نحو هاويةٍ عميقةٍ، آخذًا في الهبوط مباشرةً إلى الأسفل حتى الغرق، إلى أن ينتهي البكاء بسكوتٍ مميتٍ في نهاية الأمر، حتى ليشعر المرء أنّ صوتها لن يعود ثانية؛ كأنها توشك على اليأس، فتعاود البكاء مجددًا بصوتٍ هادئ؛ فيبدو الصّوت كما لو كان آتيًا من مكانٍ بعيدٍ، ثمّ يرتفع على طول الطريق، وفي النهاية يصير كموجٍ عنيف مليءٍ بالحزن.

وحين تأتي مثل هذه الموجة العنيفة من البكاء المختنق، تبدأ الجدّة الخائفة بتحريكها بلطف، وتُربّت على كتفيها باستمرارٍ، قائلةً: «يا روحي! يا روحي». وفي النهاية، بعد أن استنفدت الجدة كل طاقتها، ولم تعد لدى جين جين القدرة على البكاء أيضًا؛ سواءً في أحضان جدّتها أم في

سريرها الهزاز؛ تبدو كالنائمة. وحين تظن الجدة أنها نامت؛ حتى تعاود بكاءها مرّةً أخرى، كما لو أنّ البكاء هو ما يجب أن تفعله طوال حياتها.

وحين تغيب الأم، يتسبّب بكاء جين جين في قلق الجميع واضطرابهم؛ فتقلق الجدة، وتربت برفقٍ عليها عدّة مرّاتٍ، وهي تقول: «ابكي! ابكي! ولكن لا تقتلي نفسك من البكاء!».

وعند عودة الأم تواجه بموجةٍ أخرى عنيفةٍ من البكاء؛ إذ تلقي بنفسها نحو ذراع أمّها، وذلك ليس من أجل البكاء الصامت والتنهد؛ بل من أجل البكاء الشديد؛ فتسرع الأم لتعانقها وتهدهدها بلطفٍ، وهي تربت على ظهرها قائلة: «ألم ترجع أمّك؟! ألم ترجع أمّك؟! لقد رجعت أمّك!»، وتلقمها ثديها؛ فترضع حينًا، وتبكي حينًا آخر، وبعد مرّاتٍ قليلةٍ من مص حليب أمّها، تلفظ حلمة ثديها، وتعاود البكاء مرّةً أخرى، كأنّها تشكو معاتبةً أمّها: «كيف يمكنك التخلي عني؟».

جين جين تستطيع المشي

كانت جين جين بخلاف غيرها من الأطفال الذين يستطيعون المشي، والذين يشعرون بالمتعة لحظة المشي، كما يشعرون بالحماس عند الجري، ويطلبون من البالغين مطاردتهم، فكانت دائمًا ملتصقةً بساق والدتها ولا تبتعد عنها، وتسحب طرف ملابسها؛ حتى إذا جذبها مشهدٌ ما، فهي تمشي بضع خطواتٍ، ثم تنظر إلى الخلف حيث أمّها التي تخشى أن تغيب عن ناظريها إذا مشت بعيدًا، كما تخشى أن تستغلّ أمّها فرصة ابتعادها للّعب؛ فتخرج.

وعندما كبرت قليلًا، وعلى الرغم من أنّها لم تعد تلتصق بساق والدتها، أو تسحب طرف ملابسها، حتى إذا جذبها مشهدٌ ما؛ فإنّها دائمًا كانت تتبع والدتها ولا تنفصل عنها، فأينما ذهبت الأم تذهب جين جين، سواءً إلى المرحاض، أم إلى النهر لغسل الخضراوات، وحتى إلى الحقل للعمل، فلا يمكن إيقافها مهما حاولت والدتها إقناعها أو إخافتها، أو حتى ضربها على مؤخّرتها؛ لذا تعدّ جين جين مثل ذيلٍ صغيرٍ لأمّها.. ذيل لا يمكن التخلص منه.

- 2 -

تيان مكانٌ فقيرٌ

لم يفرح الجدّ والجدّة كثيرًا عندما أرادت الأم الزواج في تيان في ذاك العام؛ لكنّها أصرّت على الزواج، فاضطرّا إلى مصاحبتها بعد أن فشلا في إقناعها، وعلى الرغم من ذلك؛ فإنّ الجدّة كانت تقول دائمًا: «إذا أردت أن تتصدّى للصّعاب والمشقّة فافعل، ولكن لا تطلب العون من الآخرين. وإذا عانيت من المصاعب وتملّكك الحزن مستقبلًا، فلا تلم أحدًا».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى الرغم من فقر المكان فإنه يتميز بالجمال؛ فهو مليء بالماء والأشجار، وبه سفينة، وجسر، وتنتشر به الطيور أكثر من أي مكانٍ آخر، فهو أجمل من أماكن كثيرة، واسمه أيضًا جميل، وكانت الأم سعيدةً جدًا هناك.

يظل الجد والجدة (والدا الأم) يتنهدون حين تذهب الأم لزيارتهم وتحكي لهم عن مناظر تيان. وتظل الجدة تحكي للأم عن الأخوات اللائي كنّ في القرية نفسها معها قبل زواجها، وكيف تبدو حياتهن الآن جيدةً. فعلى سبيل المثال: «عادت لينغ من سوتشو منذ بضعة أيام، وكانت تقود السيارة مع زوجها، فهي محظوظةٌ جدًا بزواجها من شخص طيب، كما أنها تعيش بمكانٍ جيد». وقد «ذهبت تشيو إلى الجنوب، ويقال إنها تعمل في مصنعٍ للأحذية، وزوجها ماهرٌ جدًا، ويعمل في تجارة الشاي، واشترى لها منزلًا كبيرًا، ويريد استقبال والدها ووالدتها للإقامة فيه».

«وهناك فانغ...».

فتبتسم الأم في كلّ مرّةٍ وتقف قائلةً: «لقد تأخر الوقت، ويجب عليّ العودة إلى تيان».

تفكر الأم الطريق في هؤلاء الأخوات ما بين الماضي والحاضر، شاعرة بحزنٍ شديد يخرج من قلبها، فإذا عادت إلى تيان في النهاية، تحوّل قلبها إلى سماء زرقاء منعشة لحظة رؤية أنهار تيان وأشجارها.

الأب يعمل في أقصى الجنوب

تقول الأم التي تبقى في المنزل لزراعة المحاصيل للأب إنها تريد زراعة أفضل المحاصيل في هذا العالم، ومع ذلك فإنّ الأم محكومةٌ بشدّةٍ؛ بسبب جين جين، فهي كغصن عنبٍ ملتفٌ حول جسدها، تذهب معها أينما ذهبت، كأنه لا يمكن أن تنفصل عنها بالطرد، أو بالإقناع، أو بالضرب. إنّ الأم لا تستطيع العمل في الحقل بسرعةٍ كبيرةٍ؛ لأنّ جين جين تتبعها كظلها! تُسرع عندما تسرع، وتُبطئ عندما تبطئ، وتتوقّف كذلك عندما تتوقّف، وعندما تسرع الأم في طريقها إلى المنزل، سرعان ما تستدير جين جين وتجري وراءها، في انتظار الوقت الذي تغادر فيه الأم مرّةً أخرى؛ لتلتفت وتلحق بها.

ويمكن للأم أن تجري بسرعةٍ كبيرةٍ بلا شك، وربّما مكّنها ذلك من التخلّص من هذا الذيل الصغير؛ ولكنها تخشى سقوطها في النهر وهي تلاحقها؛ فالمكان مليء بالأنهار، والأنهار الصغيرة والكبيرة في حالة فوضى، بالإضافة إلى أنّ جين جين تبكي حينما تختفي والدتها، حتى تختنق من البكاء.

إصابة الأم بوجع الرأس

يمكن للجدّة والعمّات مساعدة الأم في الاعتناء بها؛ لكنّها لا تريد سوى أمّها، فهي مثل الشجرة التي تريد الالتفاف حول ساقها؛ فلا تسمح للجدّة والعمّات بمجالستها إلّا عندما تكون الأم في المنزل، أمّا في حالة خروج الأم من المنزل فلا يستطيع أحدٌ الاعتناء بها، كما لو أنّ أمّها سترحل دون عودةٍ.

والأم لا تستطيع اصطحابها إلى العمل؛ فجين جين تشعر أحيانًا بالجوع أو العطش، وأحيانًا بحكّةٍ في جسمها، أو تريد التبول بشدّةٍ، ولحظةً أخرى تريد النوم؛ لذا لا تستطيع الأم التركيز في العمل؛ فهي لأتفه الأسباب مضطرّةٌ إلى ترك العمل من أجل الاهتمام بها.

هبطت النحلة فوق العشب

جرت جين جين تجاه أمّها: «ماما، في هذه الناحية توجد نحلة».

قالت الأم وهي مشغولةٌ في حرث الأرض: «أعرف ذلك».

فأشارت جين جين إلى النحلة، وقالت: «أنا أريدها».

قالت الأم: «اصطاديها بنفسك».

فردّت جين جين: «لا أستطيع اصطيادها».

فقالت الأم: «إذن لا تفكري فيها».

ظلّت جين تنظر إلى أمّها حينًا، وتنظر نحو النحلة حينًا آخر، وحينما وجدت أمّها مشغولةً في العمل وغير مهتمة بها تمامًا، اضطرّت إلى الذّهاب نحوها بمفردها. وقفت النحلة الجميلة القرمزيّة -التي تبدو مصنوعةً من الزجاج- بهدوءٍ فوق العشب؛ وتقدّمت جين جين نحوها إلى الأمام، وهي تمشي على أطراف أصابعها، وفي الوقت نفسه مدّت يديها، وقبضت إصبعيها السّبّابة والإبهام كفم الدّجاجة التي تنقر الأرض.

كانت المسافة بينها وبين النحلة كمسافة عود طعامٍ طويلٍ فقط؛ فقفزت بقلبٍ يدق بشدّةٍ لدرجة سماع دقاته بوضوحٍ، واستدارت ببطء، ونظرت إلى أمّها، التي كانت تعمل ولا تلتفت، ثمّ استدارت ببطءٍ مرّةً أخرى لمواجهة النحلة.

وبدأ «فم الدّجاجة» يتّجه نحو النحلة ببطءٍ وجهدٍ شديدٍ، محاولًا الإمساك بذيلها؛ لكنّها طارت بخفّةٍ؛ فاستمرّت تنظر إليها، وهي ترفرف في الهواء كورقة شجرة، وتبتعد وتقترب،

وتصعد وتهبط بسرعةٍ، دون أن تبعد عن ناظريها، وبعد لحظاتٍ هبطت على العشب مرّةً أخرى؛ وبعد هبوط النحلة استدارت جين جين لترى أمّها ثانيةً؛ ولكنّ الأم لم تستدر، فليس لديها سوى أن تنشغل عنها إذا أرادت فقط أن تزرع أفضل المحاصيل في العالم. ثمّ استخدمت جين جين طريقة «فم الدّجاجة» مرّةً أخرى، وبدأت جولة جديدة من الصيد.

ثمّ طارت النحلة في السماء في الوقت الذي كان لا يزال فيه «فم الدّجاجة» يبتعد عن ذيله مسافة عود طعامٍ واحدٍ، وتكرّر هذا الوضع لأربع أو خمس مرّاتٍ. إنّ النحلة مزعجة، ولا توجد حدود لطيرانها، فكانت جين جين تشعر كأنّها تتمايل برأسها مرّتين كلّما طارت في السماء للنظر إليها، كما لو أنّها تقول لها: «أيّتها الصغيرة، لن تستطيعي الإمساك بي».

لم تكن تذهب لاصطيادها، عندما كانت تعود للهبوط على العشب مرّةً أخرى؛ بل كانت تجري إلى جانب والدتها، وتسحب جزءًا من ملابسها قائلةً: «ماما، اصطاديها من أجلي»؛ فتتجاهلها الأم تمامًا، ومع ذلك لا تتوقّف عن الكلام، وتنظر أثناء كلامها من وقتٍ لآخر إلى الجانب الذي تستريح فيه النحلة.

ألقت الأم ما بيدها بغضبٍ قائلةً: «أنت مزعجةٌ جدًا»، وأمسكت بيديها وقالت: «أين هي؟».

أشارت جين جين إلى موقع النحلة وقالت: «هناك!».

لكن هذه المرّة طارت النحلة بسرعة فوق المحاصيل، وفوق القصب، ثمّ ذهبت للطيران على الضّفّة الأخرى من النهر بلا عودة.

أمسكت جين جين يد الأم بإحكامٍ، ظنًّا منها أنّ النحلة ستعود.

لكنّ الأم تركت يديها، ثم استدارت لتعمل.

لاحقتها جين جين وهي تقول: «أريد النحلة! أريد النحلة!».

فانشغلت عنها الأم مرّةً أخرى.

توقّفت جين جين عندما رأت ضفدعًا أخضر داكنًا، يأخذ وضع القرفصاء على ورقة لوتس صغيرةٍ، لونها أخضر شاحبٌ بداخل حوض السّباحة. كان ذلك المشهد رائعًا للغاية، وبهذا الشكل أفلتت الأم مؤقّتًا.

عندما تكون جين جين في الحقل، تزعج أمها وتعوق حركتها، وتجعل الأم -التي تعمل بكلّ إخلاص من أجل زراعة أفضل أنواع المحاصيل في العالم- مشتتةً، وتقتطع جزءًا من وقتها للاهتمام بها؛ لذلك فالأمّ في غاية الاستياء والعجز؛ وتحدّث نفسها قائلةً: «كيف لي أن ألد مثل هذه الفتاة الغريبة؟!».

وأكثر ما يزعج الأم هو نوم جين جين في الحقل بعد أن تلهو؛ لأنّها ستضطرّ إلى ترك عملها

والاهتمام بها، فإذا كانت أشعة الشمس قويّةً وكان الجوّ حارًا؛ تضطرّ إلى حملها، والبحث عن مكانٍ به ظلٌّ كي تنام وإذا كانت الرياح قويةً والجوّ بارِدًا؛ تضطرّ أيضًا إلى البحث عن ملجأ لتمدّدها أسفله، كما أنّ عليها خلع معطفها لعمل فراشٍ أو لحافٍ لها.

تشبه جين جين الشّخص الميّت حين يغلبها النّعاس، فتصير يداها وقدماها لينتين، ومهما حاولت فلا يمكن إيقاظها أبدًا. تقول الأم: «لا يمكن إيقاظها في هذا الوقت، حتّى لو ألقيتها في النهر». وهكذا يمكن للأم الانهماك في العمل عندما تنام جين جين نومًا عميقًا، لكنّها تبقى قلقةً حيالها: هل تصاب بالبرد؟ هل يمكن لثعبانٍ أن يتسلّل داخل ملابسها؟ هل يمكن أن تتعرّض للدغ النّمل؟ وتظلّ الأم مضطربةً، بينما تنعم جين جين بنومٍ هادئ.

لو اقتصر الأمر على ذلك فلا بأس، لكن يتسبّب نوم جين جين في الكثير من الإزعاج والمشقّة للأم.

جلست جين جين على ممرٍّ ترابيٍّ لمشاهدة السّمك الذي يسبح داخل القنوات، وعندما غلبها النّعاس اهتزّ جسدها حتّى وقعت في القناة، ثمّ أتت صرخاتها المرعبة يصاحبها صوت الماء؛ ففزعت الأم، وألقت الأدوات، وجرت في اتجاه القناة، ثمّ انتشلتها من الماء، واحتضنتها بسرعةٍ، وقالت: «لا تخافي يا جين جين! لا تخافي!». وغسلت الأم يد جين جين ووجهها من الطّين، واضطرّت إلى ترك العمل مؤقّتًا، واحتضنتها للعودة إلى البيت؛ فقد ابتلّت ملابسها وعليها أن تغيّرها بسرعةٍ.

استدارت الأم لتنظر إلى المحاصيل أثناء سيرها في الطريق، وهي تحدث نفسها عن العمل في الحقل، بينما تعانق جين جين بشدّةٍ؛ وهي تقول: «آهٍ يا صغيرتي!».

ذات مرّةٍ مرضت جين جين وارتفعت درجة حرارتها ليومين بسبب نومها تحت شجرةٍ أثناء البرد؛ فاضطرّت الأم إلى الاعتناء بها ليلًا ونهارًا، وكانت حقول الأرز الملساء في انتظار الأم لغرس الشتلات، وكلّ ما يشغل الأم طوال الوقت هو زراعة أفضل المحاصيل في العالم؛ وكانت تضغط أنف جين جين بإصبعها قائلة: «أمّك لا تريدك حقًّا!»، بينما تمسك جين جين طرف ملابس أمّها بإحكامٍ شديد.

- 3 -

تذهب الأم للعمل لبعض الوقت في مكانٍ قريبٍ من المنزل؛ وذلك عندما تقلّ الأعمال في الحقل قبل نضوج الأرز والقمح، ويكون ذلك على الأغلب في فصل الشّتاء، وقت دخول كلّ المخلوقات في بياتها الشتوي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت الأم للأب إنها تريد بناء أفضل منزلٍ في «تيان» بعد عدّة سنواتٍ، واستقبال الجدّ والجدّة من حينٍ لآخر؛ لقضاء بضعة أيّامٍ فيه.

ولكن كيف تترك جين جين أمها تذهب إلى عملها بكلّ بساطةٍ؟! كان يمكن اصطحابها أثناء العمل في الحقل، لكن كيف يمكن اصطحابها أثناء العمل في الخارج؟ بوسعنا أن نرى جين جين تكبر يومًا بعد يومٍ، لكن ليس بوسعنا أن نراها تترك أمّها على الإطلاق. يرفض الأطفال في القرية المراقبة الشّديدة من قبل والديهم، ويتجوّلون في كلّ مكانٍ، ويصرخون عند رؤية جين جين تتبع والدتها.

تشبه جين جين الجرو الصغير الذي يتبع صاحبه في الطريق؛ فأينما تذهب والدتها، تذهب معها، وعندما تستدير والدتها، تستدير معها. آهٍ! آهٍ! إنها كالجرو الصغير. فالناس يخدشون أنفها، ويقولون: «يا للخجل! يا للعار! يا للعار!».

سحبت جين جين طرف ملابس والدتها، ثمّ استدارت الأم ونظرت إليها؛ فأشارت وهي تقفز صعودًا وهبوطًا بإصبعها إلى الأطفال، وقالت: «ماما إنّهم يشعرونني بالخجل».

فقالت الأم: «عجبًا، أتعرفين الخجل؟! بما أنّك تعرفينه فعليك عدم ملاحقتي»، فتركت جين جين ملابس والدتها، ووقفت هناك وهي في حيرةٍ من أمرها، ثمّ أكملت الأم طريقها.

استدارت جين جين ونظرت إلى أمّها، وحين وجدتها قد ابتعدت كثيرًا، اتّبعتها على الفور؛ فاستراحت الأم.

والآن، هناك فرصة عمل جيّدة أمام الأم بمدرسة ياوماتي الإعداديّة، التي تبعد حوالي سبعة أو ثمانية أميال عن «تيان»، حيث تستغلّ الفترة الصيفية وعدم وجود الطلاب في ترميم أربعين بنايةٍ مدرسيّةٍ؛ لأنّ فريق العمل يحتاج إلى عشراتٍ من العمّال غير المهرة. و«تشياو سان» هو المسؤول عن هذه الأعمال بالمدرسة، والأم على استعدادٍ لتحمّل المشقّات ومصاعب العمل من أجل أن تصير «تيان» معروفةً للقاصي والدّاني؛ فطلبت عملا من «تشياو سان»؛ فوافق على الفور، لكنّه لم يخف قلقه بشأن جين جين، وقال: «عندما تذهبين، ماذا سوف تفعلين مع جين جين؟». فكرّت الأم، ثمّ قالت: «أستطيع إيجاد حلٍّ». حينئذٍ قال «تشياو سان»: «حسنًا، سوف تتمكّنين من كسب مال وفير».

تناقشت الأم والجدّة بصوتٍ هادئ في كيفيّة الهروب من جين جين، ومغادرة تيان بهدوءٍ.

قالت الجدّة: «الهرب منها سهل، لكنّها بعد ذلك سوف تصرخ».

فقالت الأم: «وماذا في ذلك؟! فلتصرخ؛ فالصراخ لا يقتل».

هزّت الجدّة رأسها معترضةً وقالت: «أنا أخشى صراخها! فصراخها يوجع القلب. إنّ هذه المسكينة تجعل المرء لا يستطيع التحمّل».

قالت الأم: «فليكن قلبك أقسى قليلًا».

قالت الجدّة: «أخشى ألّا أتمكّن من ذلك»؛ فردت الأم: «هذه فرصة عملٍ جيّدة، ولن أفوّتها».

قالت الجدّة: «حسنًا، يجب أن تذهبي، وأنا سأقنعها أن تبتعد عنك قليلا، اعلمي أيضًا أنّه لا توجد عائلة زوجٍ تقف بجانبك دائمًا مثلما نفعل، أليس كذلك؟!».

قالت الأم وهي تبتسم: «قليلون في هذا العالم».

تظاهرت الأم أمام جين جين بأنّ شيئًا لم يحدث؛ لكنّها وجدت لمعانًا من الشّك في عينيها. لقد حاولت الأم عدّة مرّاتٍ، لكن في لحظة تفكيرها في الخروج من المنزل تشعر جين جين على الفور، والنتيجة أنّها لم تنجح ولو مرّةً في التخلّص منها؛ فجين جين تتبع أمّها قبل الذّهاب إلى الفراش، كما لو أنّها سوف تخرج قريبًا، وبعد الذّهاب إلى الفراش تعانق أمّها، وتتأخّر في الدّخول إلى النّوم، وفي اللّيل تستيقظ عدّة مرّاتٍ، وفي كلّ مرّةٍ تحضن أمّها بشدة، ثمّ ترتخي يداها بعد فترةٍ طويلةٍ من الوقت.

عند طلوع الفجر، أخرجت ذراعها ببطءٍ شديدٍ من تحت رقبة جين جين، وهي تنزل من الفراش بحذرٍ، وتحرص على أن تبقى جين جين مستغرقةً في النّوم؛ لكي تبدأ رحلتها وتذهب إلى المدرسة. واستعدادًا لذلك، استيقظت الجدّة باكرًا للتّعاون مع الأم؛ لضمان نجاحها في الخروج، واستعدّت لذلك، وتوقّعت أسوأ الاحتمالات، فانتهت الأم من إعداد جميع أشيائها بسرعةٍ، ثمّ مشت على أطراف أصابعها إلى باب غرفة النّوم، ونظرت إلى الفراش، فوجدت جين جين غارقةً في النّوم؛ فتبسّمت للجدّة، وغادرت الأم المنزل على أطراف أصابعها وهي تنظر إلى الخلف، ولم تجد أحدًا؛ فشعرت براحةٍ لم تشعر بها من قبل؛ لأنّها ذيلها الصغير كان يتبعها دائما حين تخرج.

لكن عندما تحرّكت كيلومترا واحدًا، لاحقتها صرخات جين جين؛ فاستدارت، لتجد جين جين عاريةً ترتدي بنطلونا فقط وتجري نحوها، فصفّقت الأم على عدم الاهتمام بها، وتقدّمت إلى الأمام بخطوات سريعة، لكنّ هذا الإصرار لم يدم طويلًا، ولم تتحمّل الأم، وعادت نحو جين جين، وفي هذه المرّة كانت الأم غاضبة بشدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استدارت جين جين وجرت نحو المنزل حين رأت والدتها تتّجه نحوها وتطاردها بخطوات كبيرة، وأخذت المسافة بينهما تقصر باستمرار، فجرت جين جين هاربة عند سماعها صوت خطوات والدتها المصرة ذات الرغبة الملحة في تحطيم آمال جين جين؛ فتعثرت في صخرة، عندما رأت أنها على وشك الإمساك بها، وسقطت متدحرجةً في النهر دون أن تدركها الأم.

ارتعبت الأم، بينما كانت تستعدّ للنزول إلى النهر لانتشالها من الماء، لكنها رأت جين جين تخرج من الماء وتمسكها من يديها بإحكام.

ولأنها تعرف أنّ النهر ليس شديد الانحدار، بل ينحدر بلطف؛ ظنّت أنها تستطيع التسلّق بمفردها، فقسا قلبها، وتركتها واستدارت لتكمل طريقها، وعلى الرغم من موقفها الحازم وتسلّق جين جين بمفردها، فإنّها لم تتخلّ عن مطاردة أمّها بإصرار، فلم تتحمّل الأم التي أصرّت على عدم الاستدارة للخلف مرّةً أخرى. وبعد المشي لفترة من الوقت، والمرور بالغابة استدارت من وراء شجرة كبيرة؛ لتنظر إلى جين جين التي تشبه الأرنب اللّامع الذي يقطر ماءً؛ فرقّ قلب الأم في هذه اللحظة، وجاءت الجدّة ممسكةً بثياب جين جين مسرعة الخطوات؛ بقصد اللحاق بها، واتجهت الأم أيضًا نحو جين جين؛ وفي هذه الحالة لم تهرب جين جين؛ بل وقفت هناك تنظر إلى أمّها القادمة وهي تبكي.

لقد جاءت الجدّة تجري وراء جين جين؛ كي تبذل لها بنطلونها الصغير المبتل، قائلة بحبٍّ شديد: «أنت فتاةٌ شقية لا تسمع الكلام». وعندما لمحت أمّها قالت: «كنت ذاهبة لإطعام الماشية. وفي هذه اللحظة نزلت من الفراش وجرت. أنا لا أعلم كيف تمكّنت من الجري بهذه السّرعة! يا للغرابة! من أين لها أن تعلم أنّك تذهبين في اتجاه الشمال؟ ولماذا لم تطاردك في اتجاه الجنوب؟».

رفعت الأم الشّعر المبتل عن جبين جين جين، وقالت لها: «عودي مع جدّتك»؛ فهزّت جين جين رأسها معترضةً، ثمّ سحبتها الجدّة، فبدأت تتمايل بجسدها. ومن هنا أيقنت الأم أنها لن تستطيع الوصول معها إلى حلٍّ وسط اليوم، فتنهّدت وقالت للجدّة: «أوه، سآخذها اليوم».

قالت الجدّة لـ جين جين: «إنّ والدتك لديها عملٌ، فلا تؤخريها». أشارت جين جين برأسها إيجابًا بذكاء؛ فمسحت الجدّة على الجانب الخلفيّ من رأسها قائلةً: «في حياتي لم أر مثل هذه الطّفلة».

اتّبعت جين جين والدتها بسعادة، دون إصدار أيّ صوتٍ خلال ثمانية كيلومترات.

ثمّ قالت الأم لنفسها: «من أمرك باتّباعي؟».

سأل رئيس فرقة الهندسة، عند انتهاء اليوم الأول والعمل المخصص له: «طفلة من هذه؟». أجابت الأم: «إنها طفلتي». فقال: «لا يمكن اصطحاب الأطفال في موقع البناء». فقالت: «إنها مطيعةٌ جدًا». فقال: «حتى لو كانت مطيعةً فإنها ستعطل العمل حتمًا». ثمّ قال للأم المتعبة: «لقد اصطحبتيها اليوم للمرحاض ثلاث مرّات، وذهبت لرؤيتها وهي نائمة أسفل الشجرة مرّتين على الأقلّ، وهذا بجانب إعطاء الماء وإبدال الملابس. أنا لست مخطئًا، أليس كذلك؟! بالإضافة إلى وجود الجرّافة والخلّاط كما ترين، والخطر في كلّ مكانٍ، فهذا المكان لا يمكن للأطفال الوجود فيه على الإطلاق». ثمّ نظر إلى الفتاة، وقال: «تبدو هذه الفتاة جميلةً جدًا». وفي اليوم التالي، لم تعاود الأم الذّهاب للعمل في موقع بناء مدرسة ياوماتي الإعدادية، وقالت: «إنّ الطريق بعيدٌ قليلًا».

-4-

ينضج الأرز في الخريف، ويملأ اللون الذهبي الأفق، وتصفو السماء جدًا وتصير الشمس ذهبية، ويتلألأ اللون الذهبي في السماء وعلى الأرض، ويلمع العالم كلّه. وإذا كان من الصعب القول إنّ محاصيل حديقة منزل جين جين هي أفضل محاصيل في العالم؛ فإنّها أفضل محاصيل في تيان بالتأكيد؛ حيث تتميّز سنابل الأرز بالثقل، إلى درجة قدرة ورقة الأرز أن تخبئ ذيل كلب فلا يرى؛ فالّذي يمرّ على حقل الأرز التابع لأسرة جين جين ويرى جزءًا منه، لا يستطيع أن يبعد عينه عن النّظر إليه، وبعد ذلك لا يستطيع غير أن يقول في داخله جملةً واحدةً، وهي: «هذا الأرز يبدو رائعًا!».

يرسل الأب -الذي يعمل لبعض الوقت في مكانٍ بعيدٍ- المال كلّ شهرٍ إلى المنزل؛ ويستعد لشراء منزلٍ رائعٍ في تيان؛ لتحقيق رغبة الأم.

وعلى الرغم من تعرّض الأم لاسمرار البشرة وفقدان الوزن؛ فإنّها لا تكفّ عن الغناء دائمًا بصوتٍ هادئ، كما لو أنّها لا تريد أن يسمعها أحدٌ سوى جين جين فقط، التي لا تفهم وتسأل: «ماما، ماذا تغنّين؟». ولأن الأم مشغولة، كانت تقول جملةً واحدةً: «ستفهمين حين تكبرين».

بدأ الحصاد، وحُزّم الأرز، وشُحن إلى البيادر والدّرس، والتّجفيف، وشُحن جزءٌ منه إلى مصنع معالجة النباتات؛ حتى صار الأرز لامعًا. وسوف يُرسل أوّل كيسٍ من الأرز إلى الجدّة (والدة الأم).

تميّز الأرز الجديد بالرائحة العطرة؛ حيث امتدّت رائحة وعاء شوربة الأرز الجديد من المنطقة الشرقية للقرية إلى المنطقة الغربية منها، وكانت الجدّة سعيدةً جدًا، وعبّرت عن ذلك بحملها

وعاء الأرز والثجوّل في القرية. وصلت الرائحة إلى الناس، حتى استقرّت أعينهم على الوعاء الذي تحمله الجدّة؛ فتبسّمت وقالت: «إنّ هذه الشوربة من الأرز الذي تزرعه ابنتي ربّة المنزل، وأوّل كيس منه قُدّم لنا نحن. وسمعت أنّ المحصول هذا العام رائعٌ جدًا». ثمّ ضاقت عيون الجدّة وأشرق وجهها.

وقرّرت الأم بيع الأرز المتبقّي في منفذ بيع الحبوب الغذائيّة.

يقع منفذ بيع الحبوب الغذائية في منطقة ياوماتي.

نجحت الأم في التخلص من جين جين هذه المرة؛ فاستيقظت مبكرًا، قبل شروق الشمس، وقامت من الفراش بهدوءٍ، ومشت في الطريق المائي، وركبت القارب وعبأت الأرز متجهةً إلى منفذ بيع الحبوب الغذائية عن طريق النهر؛ إذ يعدّ بيع الموادّ الغذائيّة أمرًا صعبًا جدًا، فيجب الجري دائمًا؛ سواءً على متن القارب أم بعد النّزول منه، وقابلت العديد من الناس الذين يريدون الاصطفاف، ولا تعرف متى ينتهي هذا الصف، وبذلك الوضع لا يمكن اصطحاب جين جين أبدًا. وأصاب تخمين الأم حقًّا؛ حيث يقف عددٌ كبيرٌ من قوارب بيع المواد الغذائية على منفذ البيع، ومئات الناس يصطفّون. وحينذاك فكّرت الأم في العودة؛ نظرًا إلى طول الصف الذي لا ترى نهايته؛ لكنّها تذكّرت أنّ التخلّص من جين جين لم يكن سهلًا، وأصرّت على الاستمرار، وانتهت من البيع، والحصول على المال بعد الرابعة عصرًا.

عدّت الأموال مرّةً تلو الأخرى، حتى ملأت السّعادة وجهها، ثمّ قرّرت الذهاب للتسوّق في المدينة من أجل شراء الملابس لجين جين وجدّتها (والدة الأب). وحينما أوشكت على الذّهاب إلى متجر المدينة، جاءت العفة مسرعةً، والذعر لا يفارق ملامح وجهها، وقطرات العرق تسيل من كامل جبينها إلى أسفل، ثمّ سألت الأم وهي تلهث: «جاءت... جين... هل جاءت جين جين؟». قالت الأم بذعرٍ: «لا، لم تأت!». فقالت العفة: «هي... هي لا تعرف إلّا الجري. إلى أين جرت؟». صاحت الأم: «متى حدث هذا؟».

أجابت العفة: «بعد تناول الغداء؛ فهي تبكي من الصباح حتى.. حتى الظهر، ثمّ بعد ذلك توقّفت.. توقّفت عن البكاء، فاعتقدت الجدّة أنّه.. أنّه قد مرّ، وأنّه.. أنّه لم تعد هناك حاجةٌ.. لشدّة مراقبتها، واختفت الفتاة في طرفة عينٍ».

قالت الأم: «هل بحثتم عنها؟».

أوشكت العفة على البكاء: «بحثنا في كلّ مكان؛ حتى عند جدّتها الأخرى (والدة الأم)... بحثنا في كلّ مكان...».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدأت الأم القلقة بالبحث في محيط منفذ بيع المواد الغذائية دون أيّ مقدّمات، واتّبعتها العفة الغبية.

كانت الأم تريد أن تجري في اتجاه المدينة مرّةً أخرى، فقالت العفة التي هدأت أعصابها قليلًا: «يا زوجة أخي، يبدو أنّها لم تجر في اتجاهك».

فقالت الأم: «ليس هناك شيءٌ مؤكّد، فيبدو أنها تعرف مكاني أينما ذهبت».

وبدأت الأم والعفة بسؤال كلّ من يقابلهما بالمدينة: «هل رأيت فتاةً صغيرةً؟ ذات ستة أعوام وعيون واسعة ورموش طويلة، وسنٌ مفقودة...»، بالإضافة إلى وصف الطول وشكل الوجه؛ لكنّ كلّ من سئل هزّ رأسه نافيًا.

قالت العفة حينما رأت الشمس تغيب رويدًا رويدًا: «يُستحسن أن نعود إلى تيان بسرعةٍ، فلربّما وجدت هناك بالفعل، أليس كذلك؟!».

وتناوبت الأم والعفة في تسيير القارب من أجل العودة إلى تيان في أقرب وقتٍ ممكنٍ؛ بينما يقف العديد من الناس على ضفة النهر قبل أن يرسو القارب، وعندما رأوا أنّ القارب لا يحمل سوى الأم والعفة؛ والحزن يغطي ملامح وجهيهما، سألت الأم بصوتٍ مرتعش: «هل وجدت جين جين؟»؛ فهزّ كلّ من كان على ضفة النهر رأسه نافيًا.

وعندما اقترب القارب من ضفة النهر، قفزت منه تجري ناحية المنزل بشوق كالمجانين، ولم تتوقّف عن مناداة جين جين طوال الطريق على النّحو الآتي: «جين جين.. جين جين»، وتعثّرت الجدّة أثناء الجري؛ فوقعت على الأرض؛ ونُقلت إلى المستشفى.

واسى العديد من الناس الأم والجدّة؛ بأنّه لا داعي للقلق، وأنّهم بالتّأكيد سيتمكّنون من إيجادها؛ لكنّهم فشلوا في إخفاء الضّعف الواضح عليهم عند تلفّظهم بهذه الكلمات.

لقد بحثوا عنها في كل مكان، خاصّةً الأماكن التي يمكن أن تذهب إليها، ولم يجدوها بها. إنّ هذا المكان محاطٌ بالأنهار، والعديد من الأطفال تغرق في هذه المياه كلّ عامٍ؛ وصار هذا الأمر عاديًا؛ وجين جين لا تعرف السّباحة؛ وأعين الناس مثل الأنهار هادئةٌ وغدّارة دائمًا. فلو كانت جين جين ذهبت في اتجاه منفذ بيع الموادّ الغذائية، فإنّ الطريق به أحد عشر جسرًا، وذلك وفقًا لتقدير أحد الأشخاص، الذي قدّره في داخل نفسه ولم يتكلم بشيءٍ، ومن بين تلك الجسور يوجد جسرٌ خشبيٌ، فما العمل إذا ما كانت قد مشت فوق هذا الجسر؛ وسقطت من عليه؟

فات النّهار سريعًا ودخل اللّيل، وغطّى الحزن الثقيل قلوب الجميع، وعاد الفريق الذي

ذهب للبحث مجموعة وراء الأخرى، دون أن يحمل أخبارًا جديدةً بشأن الطفلة (ولم يأت أحد بالخبر السعيد بعد)، وصار صوت الأم التي لا تتوقف عن البكاء أجش؛ حتى ضعف شيئًا فشيئًا؛ وطبطبت النساء على ذراعها، وقلن شيئًا جعلها تشعر بالطمأنينة، مثل: «يمكن أن تكون قد ذهبت بعيدًا، ورعاها أحدهم حاليًا». ثم تفرق الناس بعد أن خيم الليل شيئًا فشيئًا، ولم تبق سوى عائلة جين جين وبعض الأقارب.

لم يأكل أحدهم أو يشرب قطرة واحدةً من الماء، ومع ازدياد برودة الجو والإرهاق اللذين سيطرا عليهم الواحد تلو الآخر؛ فقد أرخى كلٌ منهم جسده، وغرقوا في نوم غير مستقرٍ.

بعد منتصف الليل، استيقظت الأم فجأةً بعدما مالت بجسدها من فوق الكرسي، وشردت بذهنها لثوانٍ، ثم خرجت من المنزل، واختفت داخل الليل الشاسع في طريق ياوماتي، وكانت تمشي بخطوات عشوائيةٍ؛ فتسرع أحيانًا وتبطئ أحيانًا أخرى، وتنادي قائلة: «جين جين.. جين جين!»

في الواقع لقد بحث في هذا الطريق من قبل ثلاثة أشخاصٍ. ولا أعرف لماذا ظلّت الأم مقتنعةً بأنّها من الممكن أن تكون قد ضلّت الطريق وهي ذاهبةٌ في اتجاه منطقة ياوماتي، ويوجد قصبٌ رماديٌ داكنٌ، يبعد ثلاثة كيلومترات عن منطقة ياوماتي، وهو أيضًا طريق المرور إلى هناك.

شعرت الأم بالخوف من القمر الهزيل المعلّق في السماء الغربيّة، وصوت الرياح الباردة التي تحفّ بعيدان القصب؛ لكنّ ذلك لم يعرقل طريقها، ولم تتردد، وتابعت المشي والنداء: «جين جين»؛ حتى سمعت صوتًا غامضًا يأتي من أعماق القصب المتشابك -وذلك بعدما قطعت نصف الطريق- كما لو كان طفلًا صغيرًا يبكي. إنّ الصوت ضعيفٌ جدًا، كما لو أنّه أحد أنواع البكاء التي تصدر أثناء النوم؛ فوضعت الأم يدها اليسرى على قلبها الذي يدق بشدةٍ، وزحفت لتسمع بهدوءٍ؛ لكنها لم تجد أثرًا لهذا الصوت.

ثم ذهبت الأم ناحية مصدر الصوت، ونادت بصوتٍ عالٍ: «جين.. جين!»، وفي هذه الأثناء جاء طائرٌ ليستريح داخل القصب المتشابك قليلًا؛ لكنه سرعان ما انطلق مرفرفًا إلى السماء المظلمة خوفًا من ذلك الصوت؛ بينما جاء صوتٌ ضعيفٌ لكنه واضحٌ: «أمي».

قالت الأم: «جين جين.. جين جين!». ثم قضت وقتًا طويلًا لتهدئة جسدها المرتعش، وبعد ذلك اتجهت نحو القصب المتشابك، وأسرعت إلى مصدر ذلك الصوت كالمجنونة. كان صوت حفيف الرياح بعيدان القصب يختلط بصوت جين: «أمي».

قالت الأم: «هذا صوت بكاء جين جين. ذلك صحيح. أنا متأكدةٌ من ذلك». وصاحت الأم بصوتٍ أجش لكنه مرتفعٌ جدًا: «جين جين»، حتى سقطت راكعةً على الأرض أمام جين جين، وفور رؤيتها لها، تساقطت دموع جين جين اللامعة تحت نور القمر الخافت؛ فضمتها إلى صدرها واحتضنتها.

سألت الأم جين جين عندما كانت تحتضنها في طريق العودة: «كيف وصلت إلى مكان القصب المتشابك؟». قالت جين جين كلامًا غير واضحٍ. في ذلك الوقت كان يوجد طريقٌ ملتوٍ به إضاءةٌ، ويمتد إلى القصب المتشابك؛ فترددت لحظةً، ثم ذهبت إلى هذا الطريق، ومع المشي تعمقت شيئًا فشيئًا؛ فشعرت بالخوف، وأرادت العودة؛ غير أنها ضلّت طريقها وسط القصب المتشابك؛ فهي لا تعلم متى بدأت ذلك، وواصلت المشي حتى وصلت إلى مكانٍ قريبٍ من الطريق الرئيسي، وفي ذلك الوقت سمعت نداء والدتها.

احتضنت الأم جين جين، التي ظلّت طوال الطريق تضحك وتبكي، وكانت الأم تلصق خدّها الذي تبلله الدموع بوجه جين جين البارد من حينٍ لآخر.

-5-

صارت جين جين فجأة تمتلك عالمًا خاصًا بها، بعد أن تجاوزت تلك الحادثة؛ فلم تعد تتبع أمّها عند الخروج من المنزل، ولم تعد تعطي أيّ ردّة فعلٍ عند خروج الأم على الطريق سوى النظر إليها، بالإضافة إلى التردّد الذي يرتسم على وجهها عند ذهاب الأم؛ فعند لحظة اتّباعها للأم، تتوقّف قليلًا، حين تسمع صرخات الجدّة من الخلف وهي تناديها: «عودي يا جين جين. إنّ والدتك عليها إنجاز شيءٍ ما! هيّا عليك العودة! عودي وابقي معي». فتنظر جين جين إلى والدتها، لكن الأم تستدير، وتشير إليها بفعلٍ أو بإشاراتٍ؛ فتتقدّم عدة خطواتٍ، وتذهب نحو جدّتها وهي تنظر إلى أمّها؛ فتبتعد الأم تدريجيًا حتى تختفي، وسرعان ما تنسى جين جين أمّها، ولكنها لا تنساها تمامًا، وتندمج في اللعب، ثم تتذكّر أمّها فجأةً؛ فتنظر إلى الطريق الذي مشت فيه قليلًا، ثمّ سرعان ما تعود إلى اللعب مرّةً أخرى. لقد بدأت تحبّ الجري في الحقول بمفردها؛ حيث يبدو عليها ملامح الإعجاب بما تحويه حقول «تيان» من شجرٍ وأزهارٍ وأعشابٍ، بالإضافة إلى أنواعٍ كثيرةٍ من الحشرات والحيوانات الصغيرة التي تتكلم معها لفترةٍ طويلةٍ، ولا تبالي إن كانت هذه الحيوانات تفهمها أو تهتم بسماع كلامها أو فهمه أم لا؟ فهي تتكلم إلى الضّفدع عند رؤيته، وكذلك مع عبّاد الشمس؛ فيبدو كلامها إلى الحيوانات غير واضحٍ بالنسبة إلى الكِبار، وليس لديهم رغبة في فهمه.

وتلعب بمفردها في الحقل بانشغال تامّ وحيويّة ونشاط، بينما يعمل الكبار في الحقل، وأحيانًا تقفز فوق أعشاب الأزهار المتفتحة، ويمكنها التخلّي عن النظر إلى والدتها لفترة طويلة من الوقت.

تنهّدت الأم بعمق عند رؤية جين جين تقفز بجنون، وتتصرّف كأنّها وحدها في الساحة، وقالت: «كم كبرت هذه الطفلة سريعًا!».

عادت لينغ من عملها بسوتشو، وبمحض الصدفة عادت أيضًا تشيو من العمل بدوام جزئيّ في الجنوب، وذلك في شهر أبريل، وعندما التقيتا وبمجرّد الحديث تولّدت لديهما رغباتٌ مشتركةٌ؛ مثل: مقابلة جميع الأخوات الجيدات اللّائي تزوّجن؛ حيث كنّ يلعبن مع بعضهنّ في الصغر؛ حيث يوجد خمس أو ست أخواتٍ، ومكان إقامتهنّ ليس بعيدًا، سواءً في المقاطعة، أم في منطقة ياوماتي، ما عدا لينغ وتشيو اللّتان تقطنان في مكانٍ بعيدٍ.

بدت على الأم ملامح الفرحة عند تسلّمها رسالة لينغ وتشيو عندما كانت تسقد الحقل، وبدأت تتصوّر مشهد اللّقاء، واستمرّت في التفكير حتّى شعرت بالتوتر؛ فنظرت إلى المحاصيل، وقالت: «إنّ القمح ينمو سريعًا، ومن الواضح أنّه أعلى من قمح المحيطين بنا ببوصتين». تنهّدت الأم وقالت: «ليتني قادرة على جعل الجميع يراها، ولكن كيف؟ إنّها مجرّد قطعة أرضٍ». شعرت الأم أنّها فكرةٌ مضحكةٌ؛ لذلك ضحكت بمفردها، ثمّ قالت وهي جالسةٌ فوق الممرّ الترابي، ضعيفة القوى: «ليس من الضّروريّ أن يعتقد الناس أنه شيء نادر!».

كانت الأم مترددةً قليلًا، ولا تريد الذهاب بعيدًا.

وقفت جين جين بمحاذاة الترعة تطارد ثعبانًا صغيرًا لا يتوقّف عن الحركة من مكانٍ لآخر، فهي تطارده بينما تطلق صرخات خوفٍ. نظرت الأم إلى جين جين، ثمّ وقفت مبتسمةً، وقالت: «سأصطحب جين جين إلى المنزل!».

يعرف الجميع أنّ الأم ولدت ابنةً في غاية الجمال؛ فهي أجمل ابنةٍ في العالم في عين أمّها؛ تمتلك وجهًا صافيًا، وشعرًا داكنًا أسود، وعينين واسعتين مشرقتين، تضيقان عندما تضحك وتصير كالخطّ الأسود، وقصبة أنفٍ طويلةٍ، وتتميّز ضحكتها -المرتسمة على فمها الصغير طوال اليوم- بالرّوعة؛ فهي تجعل الجميع يحبونها؛ سواءً أكانت تضحك أم تبكي أم تتحدّث. وتمثّل الأم أحيانًا أنّها ستقرص ابنتها قرصة قاسية في وجهها عندما تحتضنها؛ فتضحك جين جين.

عندما لا تعمل الأم تصيح في جين جين قائلةً: «العبي قليلًا ثمّ عودي إلى المنزل يا جين جين»؛ فترد جين جين موافقةً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي يومٍ ذهبت الأم إلى منطقة ياوماتي لشراء ملابس جديدةٍ لجين جين: بنطلون، وحذاء، وجورب جديد، بالإضافة إلى دبّوس شعرٍ أنيقٍ جدًا؛ فهي تريد تزيين جين جين لتصير كالزّهرة المشرقة، وهي زهرةٌ مشرقةٌ حقًّا. وحين لبست جين جين الملابس الجديدة، والحذاء، والجورب، والبنطلون الجديد، ووضعت دبّوس الشّعر على شعرها الأسود الفاحم؛ أشرق العالم كلّه.

سألت جين جين الأم: «ماما، هل سنحتفل بقدوم العام الجديد؟». قالت الأم: «ما هذا الكلام الفارغ، لا يزال الوقت مبكّرًا للاحتفال بالعام الجديد». سألت جين جين معبّرةً عن عدم فهمها: «لماذا أرتدي ملابس جديدةً إذن؟». قالت الأم: «بعد غدٍ صباحًا، سنذهب إلى منزل جدّتك (والدة الأم)».

سألت جين جين، التي لا تزال لا تفهم شيئًا: «لماذا أرتدي ملابس جديدةً، وحذاءً، وجوربًا، وبنطلونًا جديدًا، عند الذّهاب إلى بيت جدّتي؟!».

خشيت الأم أنْ تتّسخ ملابس جين جين؛ لذلك أسرعت بخلع ملابسها وطيّها ووضعها في خزانة الملابس، لكن حينما جاء موعد الذهاب إلى منزل الجدّة، رفضت جين جين الذّهاب.

سألتها الأم: «لماذا؟». قالت: «اتّفقت مع الأرنب أمس أن أذهب وأعطيه الخضراوات اليوم»، ثم أشارت إلى سلّةٍ مصنوعةٍ من أغصان الصفصاف موضوعة على الأرض، التي تغطيها عشرات الخضراوات.

قالت الجدّة التي تسمع الحديث بوضوحٍ: «هذه الفتاة المشاغبة، أخذت السّلّة وذهبت صباحًا إلى حديقة الخضراوات لالتقاطها، وكلّ هذا من أجل الأرنب!». فقالت الأم: «من الممكن إرسالها له بعد العودة من منزل الجدّة، أليس كذلك؟!».

هزّت جين جين رأسها معترضةً، ثمّ وصفت الأرنب لأمّها على النّحو التّالي: «إنّه أرنبٌ كبيرٌ، ولا يستطيع الجري، واتّفقت معه أمس أن أعطيه السلّة اليوم».

قالت الجدّة: «ما هذا الكلام الفارغ؟! أيّ أرنبٍ هذا الذي يتّفق معك؟! لا أعرف إلى أين تذهبين في الصباح!».

قالت جين جين وقد احمرّ وجهها من القلق: «لدينا اتّفاقٌ». فهي تذهب في هذه الأيّام لرؤية أرنبٍ كبيرٍ مريض وشاحب اللون ذو لون رمادي مصفر؛ فهو لا يخشاها على الإطلاق، ولحظة ظهورها في الحقل، لا تعرف من أيّ ثقبٍ أو مكانٍ يأتي، ويقفز، وهو متعبٌ تحت قدميها.

فاضطرّت الأم إلى أن تقول لها: «حسنًا، اذهبي أنت الآن، وسأنتظرك بالمنزل»، ووافقت جين جين.

انتظرت الأم في المنزل، ثمّ طال انتظارها، وحلّ الظّهر، ولم تأت جين جين حتى الآن، فاضطرّت إلى أخذ كلّ جديدٍ اشترته لها، والذهاب إلى الحقل ومناداتها.

وقفت جين جين وسط الأعشاب المتشابكة؛ وقالت الأم: «جين جين، هيا يجب علينا الذّهاب». لكن جين جين هزّت يدها معترضةً بقوّةٍ؛ فاضطرّت الأم إلى الذّهاب إليها. قالت جين جين بوجهٍ ظهر عليه القلق: «لا أعرف لماذا لم يظهر الأرنب حتّى الآن»؛ فقالت الأم: «من الأفضل وضع هذه الخضراوات فوق الممرّ الترابيّ، فربّما يأتي بعد قليلٍ ويأكل»؛ فهزّت جين جين رأسها معترضةً وقالت: «لدينا اتّفاقٌ».

استمرّت جين جين في استرجاع مشهد أمس: ففي ذلك الوقت كانت تتكلم مع الأرنب، وعندما رأى الأرنب نمسًا كبير الحجم يظهر من جحرٍ بالأرض؛ دخل مسرعًا داخل الأعشاب. وظلّ ذلك المشهد ظاهرًا أمام عينيها.

ذهبت جميع محاولات الأم في إقناعها بلا فائدة؛ فهي مصرّةٌ على عدم مغادرة هذا المكان؛ ففضبت الأم، ولكن دون جدوى؛ لأنّ جين جين كانت مصرّةً بعنادٍ أحمق. ثمّ صفعتها الأم على مؤخّرتها بغضبٍ في نهاية الأمر. صرخت جين جين باكية وقالت: «لقد اتّفقت معه على إحضار الخضراوات!».

جاءت الجدّة بسرعةٍ، وأقنعت الأم، وقالت: «اسمحي لها أن تفعل ما تشاء».

قالت الأم: «أتظنين أنه أمر مهم، فكل هذا من أجل أرنبٍ!». ثم نظرت إلى الشمس في السماء، وسلّمت الجدّة كلّ ما جلبته إلى جين جين، وساء مزاجها كثيرًا، وقالت: «يجب عليّ الذّهاب».

تسطع الشمس الدّافئة على جميع الأراضي الخضراء في شهر أبريل، والأم وحيدةٌ لا يرافقها طوال الطريق إلى بيت الجدّة سوى ظلّها؛ لذا تشعر بالفراغ! فعلى الرغم من اتّساع الأرض والسماء والأنهار والأشجار، فلا توجد غير الوحدة رفيقًا لها طوال الطريق.

كُتبت المسودة الأولى في العاشر من ديسمبر عام 2012

والنسخة المعدلة في الحادي والعشرين من يناير عام 2013

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تراث العائلة

بدأت عائلة هويوا تتدهور منذ عصر الجد الأكبر.

كانوا كشجرة هائلة طويلة، تغطي أوراقها السماء، ولا أعرف منذ متى بدأت المياه الجوفية تحت الشجرة تجف يومًا بعد يوم، ولم تسقط قطرة مطر واحدة طوال العام حتى جفت التربة وصارت صلبة كالحجر، وإذا حفرتها بالمجرفة ستخرج شرارة من شدة صلبها. بدأت أوراقها تلتف حول نفسها، ثم جفت واصفرت، وهبت رياح جافة شديدة، أطاحت بها فتبعثرت فوق التراب كآلاف الفراشات الميتة. ثم ذبلت الغصون العارية دون أن يشعر أحد، وهبت رياح أخرى جافة شديدة، أطارت تلك الأغصان المتفاوت طولها محدثة صوت خشخشة، فصارت كالعصيان الملقاة على الأرض في انتظار من يلتقطها. وعلى الرغم من أن تلك الشجرة الكبيرة لم تمت تمامًا، فإن أغصانها ظلت تتساقط، وتُقطع رأسها جزءًا جزءًا، ولم يتبق منها اليوم سوى جذع قصير سميك، وغصن أو اثنين ما زالت الحياة تدب فيهما، وترفرف أوراقهما الهشة في الهواء.

منذ سنوات عديدة كانت هناك بلدة بها شارع طويل، ويحتل بيت عائلة هويوا نصف مساحة هذا الشارع، أما الآن فلم يتبق من هذا البيت سوى كوخ صغير ضيق يقع في نهاية أحد الأزقة. كان هذا الكوخ من قبل حظيرة ملحقة ببيت عائلة هويوا، أبوابه ونوافذه قديمة بالية، وتمتلئ جدرانه بفجوات في كل مكانٍ، تدخل منها رياح الشتاء القارسة، فينكمش أفراد العائلة تحت الأغطية الخفيفة يرتعشون.

والد هويوا رجل أعرج، يقبض على ذراع ابنه ويخرجه من الكوخ ويقول له: «أترى كل هذه

البيوت؟ أتراها؟ كانت كلها ملك عائلتنا قديمًا! ثم بدأ جد جدك في بيعهم واحدا تلو الآخر، ولكنه لم يبع كل البيوت، بل...».

احمرّت عين الأب، فصارت كعقب سيجارة مشتعل وسط الظلام، ثم أشار بيده المرتعشة إلى تلك البيوت وقال: «بل... بل... سرقوها!».

كان الأب يبكي أحيانًا بصوتٍ عالٍ كالطفل الصغير.

- «كان بيتنا... إممم! كان بيتنا قديمًا أجمل بيت في البلدة!».

ينظر هويوا دائمًا إلى الأب الأعرج نظرات شك، لأنه قال ذات مرة لسمكة السماء وعباد الشمس الأسود: «كل بيوتكما هذه ملك عائلتنا من الأساس»، فلكماه وركلاه وسبّاه بقسوة، وحذراه بلهجة شديدة قائلين: «إن كررت قول هذا الهراء مرة أخرى، سنسحقك!». لكن الأب الأعرج عاد للكلام مع هويوا عن التفاخر بالمجد القديم، وبينما ينظر إليه هويوا بشك، أمسك الأب بياقة قميصه وسحبه معه إلى البراري خلف البلدة قائلًا: «إن لم تصدقني، هيا تعال معي لأريك مقبرة أجدادنا!»، ولم يرغب هويوا في اتباعه.

سار الأب الأعرج بخطواتٍ ثقيلة، ولم يستطع السيطرة على هويوا الذي لا يريد اتباعه، فأخذ يجره -وكأنه خنزير صغير مشاغب لا يريد العودة لحظيرته- بعنادٍ إلى البراري خلف البلدة.

البراري عبارة عن ساحة كبيرة للقبور، بها العديد من المقابر المتفرقة مثل نجوم السماء وقطع الشطرنج على رقعته، تمتد بعيدًا حتى النهر الكبير، ومن بينهم مقبرة ضخمة مثل الجبل، تقف منتصبةً وسط العديد من المقابر كالقمر وسط النجوم.

- «هذه هي مقبرة أجدادنا!».

أشار الأب الأعرج بإصبعه إلى المقبرة الكبيرة قائلًا هذه الجملة، ذابت وسط هواء البراري النقي.

- «أرأيت مقابر الآخرين، مجرد أكوام تراب أصفر! أما مقبرة أجدادنا فجبل كبير!».

جلس الأب الأعرج، وجذب هويوا ليجلسه بجانبه، وظل يحكي له عن المجد الذي مات منذ زمن بعيد، وقال له إن عائلتهم كانت تمتلك خمس سفن كبيرة وسبعة قوارب صغيرة وثماني أبقار وخمسة حمير وطاحونتين ومتجر ومنازل لا حصر لها وحقولا تمتد حتى السماء!

أخذ الأب الأعرج يتحدث بحماس، ولم يمر وقت طويل حتى نام وسط الحشائش الكثيفة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن هويوا لم يذهب، بل ظل جالسًا يتأمل ذلك الجبل البعيد العالي.

تطير مجموعة من الغربان بين الحين والآخر من شجرة عجوز إلى إحدى المقابر، ثم تعود مرة أخرى، ثم جاء أرنب بري ووقف منتصبًا ينظر إلى هويوا بحذر، ثم أحنى جسده واختفى تمامًا في غمضة عين.

ارتفع صوت شخير الأب الأعرج بجانب هويوا، فكان صوتًا مهيبًا رنانًا.

سطعت الشمس بضوئها القوي على البراري الممتدة حتى السماء، وهبت رياح لطيفة، ولمعت السماء من حينٍ لآخر ببقع مضاءة، وبدت المقابر وكأنها ستارة مائية رقيقة في حُلم، أو طبقة جليد تشكلت للتو فوق النهر الكبير شتاءً.

ونظر هويوا ذو الثالثة عشرة من عمره بعينين نصف مغمضتين نظرة حيرة وشك.

- 2 -

هويوا ليس طفلًا ذكيًا بل تبدو عليه البلادة، ولا يحب أن يتكلم، فيبذل جهدًا كبيرًا ويحمر وجهه ويشعر بالضيق من أجل قول بعض كلمات قليلة. ويجلس بقاعة الدرس يحدق إلى السبورة، وشرح المعلم بالنسبة له هواء يمر بجانب أذنيه، دون دخول أي كلمة في رأسه. تأخر في دراسته عامان، فيجلس الآن مع أطفال أصغر منه بعامين أو ثلاث، فيبدو أطولهم مما يشعره بالحرج، فينكمش على نفسه وكأنه دودة صغيرة تشعر بالبرد.

يتجاهل كل أطفال البلدة هويوا، بل لا يشعرون بوجود طفل يدعى هويوا في البلدة، وكأنه بلاط يمشون عليه كل يومٍ بأقدامهم دون الالتفات إليه تمامًا.

لم يكن أمامه سوى أن يبقى بجانبهم، أو يمشي خلفهم. ويظل ينظر إليهم وهم يتعاركون ويتجادلون ويلعبون الاستغماية ويقفزون من فوق الحائط ويدخلون الفناء لسرقة فاكهة الكاكي من الأشجار، ويركض خلفهم حين يركضون ويهلل معهم حين يهللون، بل أحيانًا يركض حتى يسبقهم ويصير أمامهم، ولكن سرعان ما يكتشف أنهم غيروا إتجاههم، فيتبعهم ويركض خلفهم. إنهم كسرب طيور، لهم سماؤهم وأشجارهم، يطيرون ويسقطون وكأن فكرًا واحدًا يجمعهم. ولكنه طائر مختلف، بل ليس طائرًا من الأساس، إنه شيء لا يقارن بالطيور تمامًا، ربما يكون ورقة شجرة، أو ورقة جريدة بالية طائرة في الهواء أو ساقطة تحت الشجرة الكبيرة.

يستطيعون معرفته من أول نظرة، لأنه يرتدي دائمًا أقذر وأقدم ملابس في البلدة كلها، ولكن في نظرهم لا يوجد من الأساس شخص اسمه هويوا. ولكي يلفت الأنظار إليه، مسح وجهه

بهباب الأواني، وركض في الشارع من الشرق إلى الغرب، ثم من الغرب إلى الشرق، والتفت إليه بالفعل أطفال كثيرون، وركضوا خلفه لفترة، ولكن سرعان ما فقدوا شغفهم تجاهه وعادوا إلى عالمهم الخاص.

صعد ذات مرة فوق مدخنة الموقد الطوبي، التي يبلغ ارتفاعها ثلاثين مترًا، وذات قمة عالية تكاد تلمس السحاب الطائر في السماء، وإذا فكرت فقط في الصعود إليها سيرتجف قلبك، وتهتز ساقاك. ولم يلفت نظر الأطفال فقط حينها، بل تجمع كل أهل البلدة كبارًا وصغارًا تحت المدخنة وظلوا ينظرون جميعًا إليه.

نظر إلى أسفل، فرأى عيونًا كثيرة لامعة، وحينها جلس القرفصاء على قمة المدخنة، وعقد ذراعيه على صدره، ورفع وجهه قليلًا إلى أعلى متأملًا السماء الملبدة بالغيوم.

ناداه الكبار يحثونه على النزول سريعًا، بينما ظل الصغار يهتفون ويصفقون له. ولكنه لم ينزل على الفور، بل ظل جالسًا على قمة المدخنة وكأنه يقول لمن بالأسفل: «لن أنزل!».

نفد صبر الكبار في النهاية، فمنهم من عاد إلى بيته ومنهم من عاد إلى عمله، وسرعان ما ركض الأطفال وهم يصيحون من أجل حمامة جرحها نسر، ويشاهدونها وهي تطير مترنحة لِفْتَرة، ثم وقعت في المحاصيل شرق البلدة، ولم يعد هناك أحد يقف أسفل المدخنة، ثم جاء كلب فجأة.

ظل هويوا جالسًا فوق المدخنة، ثم خرج رجل من بيته لأداء مهمة ما، فرفع رأسه ورآه ما زال جالسًا فوق المدخنة فقال لشخص آخر يمشي مقابله: «أما زال ذلك الفتى جالسًا فوق المدخنة!»؛ فرفع ذلك الشخص رأسه ونظر إليه قائلًا: «وهل سيموت إذا وقع!»، ثم مشى كل منهما في طريقه.

لم ينزل من أعلى سوى في آخر النهار، فوجد كلبا يجلس القرفصاء على الأرض وكأنه ينتظره، فقرر أن يأخذه إلى البيت.

كان الكلب رماديًا يميل إلى السواد، شديد الاتساخ ونحيفًا جِدًا، ليس من كلاب البلدة ولا أحد يعرف من أين أتى.

حضن الكلب ولصق خده بوجهه، ثم ذهب إلى البيت، وظل الكلب هادئًا مطيعًا في أحضانه، وكان قلب الفتى سعيدًا جِدًا، وحين لحس الكلب وجهه بلسانه الناعم الرطب عدة مرات، شعر بحرقان في أنفه وكادت الدموع تسقط من عينيه.

أخذ الكلب معه في اليوم التالي وخرج من الكوخ الصغير، وعبر شارعًا طويلاً ضيقًا، ثم مشى بشارع طويلٍ آخر يربط بين الشرق والغرب.

اعتاد الكلب على هويوا في يومٍ وليلة وصار يتبعه بأرجله الأربعة في كل مكان.

شعر ببعض الفخر، وصار يمشي في الطريق ناظرا أمامه فقط ولا يلتفت إلى جانبيه. ورأى بعض الأطفال هذا المشهد، فلم يعرفوا كيف يتصرفون، فظلوا ينظرون إليه في صمت وهو يمشي متبخترًا بخطواتٍ رنانة.

يبتعد الكلب أحيانًا عن خط سيره ويذهب إلى جانب الطريق ليلف حول قطع القماش البالية التنة، أو يركض إلى بيت أحدهم ويضع كفوفه الأمامية على عتبته، وينظر داخل البيت، وحين يناديه هويوا: «أيها الكلب!»؛ يعود إلى جانبه على الفور.

حين كان هويوا يعبر من الطرف الغربي للشارع إلى الطرف الشرقي ومعه الكلب، رآه عباد الشمس الأسود الذي كان يجلس على العتبة ممسكًا بين يديه صحنا كبيرا ويشرب العصيدة؛ فتوقف عن شربها، ووضع الصحن بين ركبتيه صامتًا. وحين مر هويوا مع الكلب في طريق العودة، وقف عباد الشمس الأسود في منتصف الشارع.

وحين كان هويوا يرشد الكلب ويمر في الشارع، تحرك عباد الشمس الأسود جانبًا منتظرًا مرورهم ليعود مكانه ثانيةً. وظل يتأمل هويوا وهو يمشي منتصبًا لا ينظر إلى الخلف مع الكلب الصغير الذي يتبعه بخطواتٍ متلألئةٍ، دون أن يتحرك حركة واحدة.

سار هويوا بصحبه الكلب حوالي خمسين مترًا، فنادى عباد الشمس الأسود فجأة: «أيها الكلب!».

فالتفت إليه هويوا والكلب، ولكن هويوا نظر إليه نظرة عابرة ثم أدار رأسه، أما الكلب فظل يتأمله وكأنه يتفحصه.

كان عباد الشمس الأسود فتى سمينًا، يرتدي ملابس نظيفة، وأخذ ينظر إلى الكلب وينحني بجسده في هدوءٍ وينادي: «أيها الكلب! أيها الكلب! أيها الكلب!».

اكتشف هويوا أن الكلب لا يتبعه، فأدار رأسه وناداه: «أيها الكلب!»؛ ففزع الكلب وأعاد نظره إلى هويوا.

قال هويوا: «هيا!»، وأدار رأسه وأكمل طريقه إلى الغرب، فتردد الكلب قليلًا ثم اتبع هويوا، فنادى عباد الشمس الأسود بصوتٍ عالٍ: «أيها الكلب!»؛ فسمعه الكلب وأدار رأسه مجددًا ناحيته.

أخرج عباد الشمس الأسود من جيبه طعامًا ما، ووضعه على الأرض، وظل يشير إليه وهو ينادي الكلب قائلًا: «أيها الكلب! أيها الكلب!».

أدار الكلب رأسه ونظر لهويوا، ثم ركض تجاه عباد الشمس الأسود.

قال هويوا بعدما أدار جسده ودب بقوة على الأرض: «أيها الكلب».

وقف الكلب مترددًا، تارة ينظر إلى عباد الشمس الأسود وتارة ينظر إلى هويوا.

ظل عباد الشمس وهويوا يناديانه: «أيها الكلب!».

ظل الكلب يفكر متحيرًا لا يعرف في أي اتجاه يذهب، حتى نظر بأسف لهويوا وركض نحو عباد الشمس الأسود، فلاحقه هويوا، ولكن عباد الشمس الأسود أخذ الكلب ودخل إلى فناء منزله وأغلق الباب.

انبطح هويوا على بطنه ونظر إلى الداخل من تحت عتبة الباب، فرأى الكلب الصغير يتبع عباد الشمس الأسود وهو يهز ذيله ورأسه، فشعر بالغيظ وأراد ركل باب فناء منزل عباد الشمس الأسود ولكنه تراجع وأنزل قدمه... لا يعرف أتراجع لأن باب فناء المنزل طويل وكبير وصلب، فخشي أن تؤلمه قدمه، أم لأنه لا يجرؤ. ثم بصق أمام الباب الفناء وأدار رأسه وذهب.

لم يعد هويوا إلى البيت، بل ذهب إلى البراري خلف البلدة، وعبر بين المقابر الصغير منها والكبيرة، حتى وقف أمام تلك المقبرة الكبيرة، إنها حقًا مقبرة ضخمة! ظل يتأملها لِفترَة طويلةً، بينما ينعق غراب فوق الشجرة.

صعد هويوا إلى المقبرة الكبيرة، وحين وقف فوقها ونظر إلى الأمام، شعر بأن هذه الأرض واسعة جدًا، فأدار جسده ونظر حوله، ثم جلس بعد ذلك فوق المقبرة، ونظر إلى الأسفل حيث المقابر الأخرى، فشعر أنهم مجرد مقابر صغيرة معتمة موحشة؛ فلوى شفتيه وضحك ضحكة ساخرة!

- 3 -

فقد عباد الشمس الأسود شغفه بالكلب بعد مرور ثلاثة أيام فقط؛ فطرده خارج المنزل. ظل الكلب ينشِج ويخدش باب الفناء بأظافر كفه الأمامية، ولم يذهب، ففتح عباد الشمس الأسود الباب وصرخ غاضبًا: «اذهب»، وأغلق الباب بقوة.

مر هويوا عليهما ورأى الكلب المسكين، فأراد أن يأخذه مرة أخرى ويذهب، ولكن حين أراد أن

يحمل الكلب، رفع الكلب رأسه ونظر إليه ثم عضه في ذراعه!

ألقى هويوا بالكلب على الفور. لم تكن عضة قاسية، بل تركت فقط علامتين خفيفتين من الدماء على ذراعيه، ولكنه كان مكسور القلب، وزحف بحذائه البالي على الطريق المبلّط في حزنٍ وإحباط.

وبعد قليل، ركض عباد الشمس الأسود من جانبه، وتبعه الكلب الصغير، فأدار جسده وحاول إبعاده كثيرًا، ثم صرخ فيه قائلًا: «غرب عن وجهي!»؛ فانكمش الكلب وانحنى على الأرض، وحين رأى عباد الشمس الأسود يدير جسده ليركض إلى الأمام، اتبعه مجددًا بتبجح.

توجد ساحة صغيرة بالأمام. واليوم هو يوم الأحد؛ لذا تجمع أطفال كثيرون بالساحة، ويبدو أنهم في انتظار مجيء عباد الشمس الأسود. حين مشى هويوا ببطء حتى وصل إلى تلك الساحة، انقسم الأطفال إلى فريقين: فريق سمكة السماء وفريق عباد الشمس الأسود.

سيلعبون اليوم لعبة «الهجوم»، وكل ألعاب الهجوم عبارة عن مجموعة أطفال يذهبون لحماية صومعة حبوب مهجورة، ومجموعة أخرى تذهب لمهاجمتها. وينقصهم واحدٌ لكي يتحقق تعادل بين عدد الفريقين، لذا لم يتمكنوا من بدء الهجوم، فكانوا يجمعون الأسلحة وينتظرون مجيء أحد الأطفال ليكتمل العدد.

مر هويوا أمامهم، ولكنهم تظاهروا وكأنهم لم يروا شيئًا وهم ما زالوا قلقين بشأن عدم اكتمال العدد. اهتز هويوا أمام عينيهم وابتسم ليتودد لهم، ولكنهم كانوا ينتظرون حتى يمر ويعاودون النظر إلى الأمام، أو ينظرون إلى الناحية الثانية. إنتظروا قليلًا، وحين لم يأت أحد، قال عباد الشمس الأسود المسؤول عن الهجوم: «فلنبدأ الهجوم حتى وإن لم يكتمل العدد».

انطلق الأطفال راكضين نحو صومعة الحبوب المهجورة جنوب البلدة فور إنهاء عباد الشمس الأسود لهذه الجملة، ولم يبق في الساحة سوى هويوا. نظر إلى الكلب المتحير وناداه بصوتٍ هادئ: «أيها الكلب!». ولكن الكلب لم يعره اهتمامًا وركض ليلحق بالأطفال محدثًا صوتًا بقدميه. وقف هويوا في مكانه كجذع شجرة، ونظر تجاه الصومعة المهجورة، وحينها كان الغبار يتطاير من أثر ركض الأطفال.

ظل الكلب الصغير يظهر ويختفي من حين لآخر، حتى اختفى هو والأطفال تمامًا، وارتفع صوت صخب وحماس العراك بالأسلحة البيضاء.

ومن بين تلك الأصوات، صوت صراخ من الألم، فمن الواضح أن من جُرح بالقرميد أو من ضُرب

بالعصا، كان صراخه يحمل رائحة دماء محزنة.

وبعد قليل، ارتفع صراخ توجع الكلب، يبدو أن أحد الأطفال دهسه وهو يتجول بينهم بفوضوية. تمنى هويوا أن يعود الكلب، ولكن لم ير حتى ظله.

ارتفع صوت العراك بالأسلحة البيضاء وصار أكثر حدة، وعلت معه صرخات وأنين الجرحى وكأن المعركة وصلت إلى ذروتها.

ركض هويوا حوالي عشر خطوات في اتجاه صومعة الحبوب المهجورة جنوبًا ثم توقف. وبعد قليل، سد أذنيه بكفيه، واستدار وركض في الاتجاه العكسي، ثم اندفع مرة واحدة نحو ساحة المقابر.

وتسلق مقبرة عائلته الكبيرة وجلس القرفصاء فوقها.

ذهب الصيف بحره وجفافه وصخبه، وجاء الخريف. الخريف فصل هادئ ومشرق بالألوان. السماء عالية جدًا، كأنها تسبح كل يوم إلى قمة لا محدودة، وزرقاء كأنها غُسلت بالماء فصارت صافية لا تشوبها ذرة قذارة. صارت حقول الأرز حول ساحة المقابر صفراء ذهبية، تعكس ضوء الشمس الذهبي. جفت الحشائش بساحة المقابر واصفرت، ولكن تفتحت كومة من الزهور شرقًا وغربًا، واستراحت بعض الغربان فوق الأشجار وكأنها تفكر في مشكلة: «سيذهب الخريف ويأتي الشتاء وتسقط معه أوراق الشجر، حينها إلى أين سنطير؟».

جلس هويوا فوق المقبرة، ونظر إلى الأسفل، فهدأ قلبه شيئًا فشيئًا. لا أعرف متى هبت رياح جنوبية حركت معها كل خيالات المآتة المغروسة في الحقل، واهتزت بقوة المقشة أو مروحة الخوص المعلقة على أذرع خيالات المآتة المفتوحة، حتى ظهروا أمام هويوا كمجموعة من الأطفال يهجمون عليه بكل حماس، فوقف ونظر حوله ورأى خيالات المآتة في كل مكان.

هبط من المقبرة الكبيرة وركض نحو الحقول وخيالات المآتة، وأخذ يجمعهم واحدًا واحدًا، ثم قسمهم وركض بهم إلى ساحة المقابر عدة مرات. يوجد العشرات من خيالات المآتة في الحقل، فإما يأخذهم ويضعهم فوق المقبرة أو وسط الحقل لينصب بهم كمينًا، وإما يضعهم مائلين في الطين في وضع الاستعداد للهجوم. قضى وقتًا طويلًا ليضع خيالات المآتة على هذا الشكل، ثم صعد إلى المقبرة الكبيرة مرة أخرى ونظر إليهم؛ فشعر بالرضا، ثم نزل منها مرة أخرى وأخذ يجمع الأشياء التي يرى أنه يمكن استخدمها كسلاح: طوب مكسور، بلاط، حجارة، عصا، وغيرها من الأشياء. لقد ذهب وعاد كثيرًا حتى أحضر كل هذه الأشياء فوق المقبرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صار الآن لديه ما يكفي من الأسلحة والذخيرة. فصرخ في وجه خيالات العأتة الموجودة أمامه قائلاً: «فلتهاجموني إن كنتم أقوياء». وسرعان ما شن عليهم أول هجوم. ثم قذفهم بالطوب المكسر والبلاط وقفز فوق المقبرة الكبيرة.

وبعد عدة جولات من القذف، أمسك بعصا خشبية طويلة وكأنه يمسك برمح طويل، ونزل من

المقبرة الكبيرة، وفمه لا يتوقف عن الصياح: «هيا... اقتل...». وأخذ يطعن بالعصا خيالات المآتة الملقاة على المقبرة، ويلوح بها ويضرب خيالات المآتة المنتصبة ليوقعهم على الأرض.

اتسعت عيناه وملأتهما نظرات الحقد، ولكن الفرح ظهر على فمه وعينيه بعد تسديد ضرباته المتتالية، ثم شعر بعطش شديدٍ وبُح صوته وشعر بألم في حلقه نتيجة للصراخ والقتال.

وبعدما ظن أنه سحق كل الأعداء، عاد إلى المقبرة ثانيةً بكل فخرٍ ممسكًا في يده بالعصا الخشبية، ثم وقف على مكان مرتفع بالمقبرة في هيئة منتصر ينظر بهيبة إلى ساحة المعركة التي سحق كل من فيها.

سطعت الشمس مشرقة، وفاحت في الهواء رائحة الأرز الناضج الشهية.

- 4 -

لم يعد هويوا يهتم بما يفعله أطفال البلدة منذ ذلك الوقت، صار لهم عالمهم الخاص وله عالمه الخاص. عالمه كله في ساحة المقابر، بين صغيرها وكبيرها، خاصة مقبرة عائلته الكبيرة التي تشبه الجبل الصغيرا

وهو بين حالين؛ إما أن يمشي بين المقابر محني الجسد لينصب كمينًا، ثم يقف فجأة ويهجم على أحد القبور، وإما يمسك بالعصا الخشبية كأنها مدفع رشاش قوي ليشن على أعدائه بالأسفل (خيالات المآتة) قصفًا شديدًا. أو يتخيل أن المقبرة تحولت إلى مكان به مختلف الأشكال والمناظر، فينسج من القبور وخيالات المآتة والأعشاب الكثيفة والأشجار الكبيرة والغربان والأرانب البرية والثعلب عالمًا من خياله.

كان يشعر في ساحة المقابر بسعادة لا حدود لها. وأكثر ما يشعره بالسعادة والرضا أن يجلس فوق المقبرة الكبيرة وينظر في هدوءٍ إلى المقابر الأخرى بالأسفل بعجرفة. فأحيانًا يجلس هناك منذ الصباح الباكر حتى يسطع القمر على غصون الشجر، وإن شعرَ بالجوع، يقطف بعض الفواكه البرية من الحقل ويأكلها، أو يتسلل إلى البستان والحقول القريبة لسرقة البطيخ والفواكه.

المقابر مكان قاتم ومخيف بالنسبة لأي شخص صغيرا كان أم كبيرا، وعادةً يدخلها عدد قليل من الأشخاص. ولكن حين رأى الناس هويوا يقضي اليوم كله وحده هناك بلا أدنى خوف، زادت نظرات تعجبهم منه. وحين يمشي في الشارع المبلّط، تتبعه نظرات صامتة من النوافذ والمداخل.

وابتعد الأطفال عنه أكثر وأكثر، وكأنه أخذ من المقابر طاقة سلبية، صارت معه في كل مكان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذهب الخريف والشتاء أيضًا وعاد الربيع مرة أخرى.

سرعان ما جاء الربيع، وهواء لياليه جعل المقابر خضراء اللون، فصارت نابضة بالحياة تحت ضوء الشمس الدافئ اللطيف، وصاحت الغربان في قلقٍ وظلت تحلق بين الأشجار والمقابر وتطارد بعضها وأحيانًا تتعارك؛ فيطير الريش الأسود في الهواء من أثر العراك.

فصاح هويوا ليوبخها قائلًا: «كفوا عن الإزعاج، كفوا عن الإزعاج!».

فسكتت للحظات، ثم عادت للشجار والضوضاء مرة أخرى.

الربيع فصل تنمو فيه مختلف الأمنيات، فتزايدت معه أمنية أطفال البلدة في دخول ساحة المقابر واستكشافها، فلم يذهبوا إليها من قبل، ويريدون معرفة ما الذي يجذب هويوا ليظل جالسًا هناك طوال اليوم؟

كان عباد الشمس الأسود في يوم من الأيام خلف البلدة في الثالثة عصرًا، ومعه حوالي ثلاثون أو أربعون طفلًا، منهم الكبير والصغير، ممسكين بأشياء في أيديهم، غالبًا ما تكون غصيا خشبية، ولم يدخلوا ساحة المقابر مباشرةً بل وقفوا يشاهدون المنظر من الخارج.

نهض هويوا مذعورًا، ولكنه اطمأن حين نظر إلى الأسلحة والذخيرة الكثيرة التي جمعها فوق المقبرة، وحل الفخر محل القلق في قلبه، وقال: «انظروا انظروا، إنني جالس على مقبرة عائلتي الكبيرة!».

ونظر إلى القبور الصغيرة التي لا حصر لها بالأسفل، فارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة.

كان عباد الشمس الأسود يربط حزامًا على بنطاله ويُمسك في يده بعصا خشبية قوية، فأدار رأسه ونظر إلى الأطفال الذين يتبعونه ثم توجه إلى ساحة المقابر.

تبعه سمكة السماء، وكان فريقًا مدهشًا يمشي في فصل الربيع.

بدأ هويوا يأخذ حذره، وعلى الرغم من أنه لم ير عيني عباد الشمس الأسود الضيقتين الدائريتين بعد، فإنه شعر بنظراته الشريرة، فأمسك بالعصا الخشبية التي كان يعتقد أنها الأقوى.

دخل فريق عباد الشمس الأسود إلى ساحة المقابر.

لا توجد هنا سوى المقابر والعشرات من خيالات المآتة التي هزمها هويوا، وخلاف ذلك لا يوجد شيء. إنهم لا يعرفون السبب الذي يجعل هويوا يقضي يومه كله في هذا المكان، فامتلأت أعينهم بالشك، وحولوا نظرهم إلى هويوا، وحينها كان يجب رفع رؤوسهم لأعلى،

حيث كان جالسًا على قمة المقبرة العالية، مما جعلهم يشعرون بعدم الراحة.

كان هويوا رافعًا وجهه لأعلى يرنو إلى السماء، ثم ينظر إليهم نظرات عابرة من حين لآخر.

بدا على عباد الشمس الأسود الازدراء، فمشى بلا مبالاة وسط المقابر وكأنه يقول لهويوا: «جئنا للعب فقط، ولا علاقة لك بالأمر، لم نأت لمهاجمتك، فأنت لا شيء!».

ظل يتظاهر بهذا لفترة، ثم لم يستطع كتمان صبره أكثر من هذا، فأمسك بالعصا وتوجه مباشرةً إلى المقبرة الكبيرة، ومع تقدم خطواتهم، ضغط هوي هوا على العصا الممسك بها أكثر.

وصلوا إلى المقبرة الكبيرة، وأحاطوا بها في لحظات، وجلس عباد الشمس الأسود وسط الأعشاب.

كان مشهدًا يشبه فريقًا من الجيش طوّق مرتفعًا كبيرًا في انتظار لحظة الهجوم.

وجلس الأطفال في هدوء دون أن يتكلم أحد.

تمتلئ المقبرة الكبيرة بالأعشاب الطويلة الكثيفة المزدهرة، ومن بينها بعض الأزهار الصفراء والزرقاء، وعلى الرغم من أنها زهور صغيرة، فإنها أطول من الحشائش وتتمايل مع الرياح في صمت.

- 5 -

نظر سمكة السماء إلى الحشائش الموجودة بالأرض وصرخ فجأة قائلًا: «العذم الشعري!»(4).

العذم الشعري هو لب نبات القش، ويمكن قطفه، فقبل نموه يكون ناعمًا وَطَرِيًّا، وإذا مُضِغَ يخرج منه سائل مسكر جدًا، فيذهب الأطفال كل ربيع إلى الممرات الترابية بحثًا عنه، ويُخرجون لبه ويمضغونه. يُقطف العذم الشعري سريعًا، بسبب كثرة عدد الأطفال، ولم يتوقع أحد أن تلك المقبرة بها كمية كبيرة منه.

تحمس الأطفال فجأة، فاستمروا في الزحف على الأرض مع البحث عنه، وإذا وجدوه يقطفونه في الحال ويضعونه في فمهم، ويمضغونه وهم مستمرون في البحث.

سرعان ما اكتشف أحد الأطفال أن كل مكان بتلك المقبرة الكبيرة به نبات القش الذي يحتوي لبه على العذم الشعري، فزحف عدد كبير من الأطفال إليها في غمضة عين.

وقف هويوا فجأة وقال: «إنها مقبرة عائلتي!»، ثم أمسك بالعصا الخشبية وهجم على الأطفال الزاحفين إلى المقبرة الكبيرة، فَفَزِعوا ونزلوا إلى الأسفل، فأزاح عباد الشمس الأسود

الأطفال جانبًا بذراعيه، ونظر إلى هويوا قائلًا: «نعترف أنها مقبرة عائلتك الكبيرة! ولكننا نريد قطف نبات العذم الشعري! ماذا في ذلك؟».

فقال هوي هوا: «العذم الشعري الموجود أيضًا ملك لعائلتي!».

فضحك عباد الشمس الأسود، ثم أدار رأسه وأشار إلى الأطفال الذين يتبعونه بيده وقال: «اصعدوا لقطف النبات!».

تردد الأطفال قليلًا، ثم تفرقوا وهجموا على المقبرة الكبيرة.

اندفع هويوا فجأة من أعلى المقبرة وفي يده العصا الخشبية ليقاوم بها أحد الأطفال بقوة في صدره، ولم يروا من حولهم شيئًا سوى سقوط هذا الطفل من أعلى متدحرجًا.

وحين رأى الأطفال الآخرين هذا المشهد تراجعوا جميعًا إلى أسفل المقبرة الكبيرة.

ولكن عباد الشمس وسمكة السماء لم يتراجعا، ولم يعد نبات العذم الشعري هو هدفهما، بل أرادا الهجوم... الهجوم على قمة المقبرة. ولم تظهر في عقليهما سوى المشاهد البطولية المأساوية التي تحدث في الأفلام: جبل طويل أو أرض مرتفعة، هجوم، نيران المدافع، طلقات الرصاص، هجوم لا يتوقف، من أُصيب بالرصاص ومن يسقط ومن يصرخ وما إن يسقط واحد حتى يقفز الثاني مكانه...

وظهرت مثل هذه المشاهد في رأس هويوا أيضًا فجأة وهو واقف فوق قمة المقبرة.

رأى عباد الشمس الأسود هويوا. لم يدقق النظر إليه هكذا من قبل! ثم أخذ يوشوش سمكة السماء ببعض الكلمات، وسمكة السماء يومئ له برأسه.

تراجعوا ونزلوا ونادوا بقية الأطفال وأخذوا يتهامسون، وسرعان ما اكتشف هويوا أنهم انقسموا إلى فريقين: فريق بقيادة عباد الشمس الأسود، وفريق آخر بقيادة سمكة السماء، ولم ينتظروا حتى يفهم هويوا خطتهم، بل رأى المجموعتين تهجمان على قمة المقبرة، إحداهما من ناحية اليسار والأخرى من اليمين، فأمسك بالعصا الخشبية وأخذ يضرب بها يمينًا ويسارًا بكل قسوة؛ فأصاب فرجة بنطال أحد الصبية، الذي صرخ صرخة حادة وغطاها بكلتا يديه وانحنى فوق المقبرة.

وبعد مرات عديدة من الكر والفر، اكتشف هويوا أن المجموعتين تقتربان أكثر وأكثر من قمة المقبرة، فألقى بالعصا الخشبية، وبدأ يلقي سيلًا من الطوب المكسور والبلاط يمينًا ويسارًا دون أن ينظر أمامه، ومن الواضح سقوط جرحى ومصابين، فقد تعالت التأوهات يمينًا ويسارًا.

كان عباد الشمس الأسود وسمكة السماء في مقدمة الهجوم، وظلا يلوحان إلى الأطفال من خلفهم لإرشادهم قائلين: «اهجموا...». ولكن أصيب خذ سمكة السماء من البلاط؛ فسال الدم على زاوية فمه.

رأى هويوا العصيان في يدهم كأنها أشجار كثيفة في الهواء، وسيضرب بها وتسقط على جسده في الحال، فأمسك بالعصا الخشبية مرة أخرى وأغمض عينيه، وهجم بها فجأة على فريق عباد الشمس الأسود يسارًا، ولكنه قاوم في الوقت نفسه ضربات عصيان كثيرة، ثم شعر أن يده تهتز حتى آلمته وصارت مخدرة، وحين أراد الإمساك بالعصا مرة أخرى لاستكمال القتال، وجد عباد الشمس الأسود قابضًا عليها باستماتة؛ فتعاركا لفترة طويلة، ثم اندفع عباد الشمس الأسود نحوه فجأة وخطف منه العصا الخشبية، فاهتز توازن هويوا وسقط على المقبرة ثم تدحرج للأسفل.

ظل يتدحرج ولم يستطع التحكم في ذاته، وحينها سقطت على جسده ضربات العصي وركلات بعض الأطفال. وحين سقط أسفل المقبرة احتل الفريقان قمتها، ورفعوا عصيهم وهم يقفزون ويهللون، وكان ذلك الكلب يتبعهم، وحينها هجم على قمة المقبرة معهم وأخذ ينبح بصوتٍ عالٍ وهم يهللون.

- 6 -

تحمل هويوا الألم ونهض من الأرض، فرأى أعينًا دائرية تحدق فيه من أعلى المقبرة، وبدا كل واحد منهم طويل القامة.

أخذ يجمع قطع الطوب المكسر المدهوس بين الحشائش الكثيفة، وأمسك في كل يد بقطعة طوب واندفع فجأة إلى أعلى؛ فصوبت نحوه على الفور عشرات العصي، لكنه رفع يده الممسكة بالطوب عاليًا واتخذ وضعية تمكنه من توجيه الطوب في وجه العدو في أي وقت.

عندما رأى الطفل الواقف في المقدمة وضعية هويوا، تراجع للخلف لا إراديًا، فضغط على الطفل الواقف في نهاية الطابور فجأة وسقط للخلف، وصار كل صف يضغط على الآخر بقوة أكثر، حتى تمايل جسد آخر طفل واقف في الطابور، فحرك يده في عشوائية، وسقط، فتدحرجت وراءه مجموعة الأطفال في جلبة شديدة.

استغل هويوا هذه الفوضى وصعد خطوتين للأمام.

سرعان ما استعاد الطفل بالجهة الأمامية توازنه، فصوبت العديد من العصي تجاه هويوا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واتخذوا وضعية الاستعداد للانقضاض في أي وقت. ظل الطرفان في حالة تأهب فترة، ثم اندفع هويوا وعباد الشمس تجاه بعضهما في الوقت نفسه، وحين تجمعت عصي فريق عباد الشمس الأسود تجاه هويوا، طارت قطع الطوب المكسر من يده إلى قمة المقبرة. دفعت العصي هويوا فأسقطته بكل قسوة، بينما سقطت قطع الطوب المكسر على قمة المقبرة مثل القنبلة، فتفرق جميع الأطفال فجأة وتدحرجوا من فوق المقبرة.

سقطت قطعة طوب فجأة على كتف عباد الشمس الأسود، فجثا على الأرض، ووضع كفه على كتفه الذي يؤلمه بشدة وهو يكشر عن أنيابه وينظر بكل غضب إلى هويوا الذي لم ينهض من أسفل المقبرة بعد.

جثا الكلب بجانب عباد الشمس الأسود، وظل ينبح، ونهض هويوا بصعوبة وهجم مجددًا على قمة المقبرة ويده خالية من أي سلاح.

قفز عباد الشمس الأسود فجأة دون أن ينتظر رد فعل هويوا، ثم هجم عليه وأوقعه، وبالطبع وقع معه؛ فأمسكه بإحكام وتدحرجا معًا حتى سقطا إلى الأسفل.

وبعد جولات عديدة من الصراع، هزم عباد الشمس الأسود هويوا، ولوى ذراعيه وراء ظهره وركب فوقه، ثم هجم الأطفال على قمة المقبرة يتفرجون على عباد الشمس الأسود وهويوا. والتف عباد الشمس الأسود ونظر إلى قمة المقبرة ثم نادى بصوتٍ عالٍ قائلًا: «اهبطوا لضرب هذا الأحمق!».

فوقف الأطفال مذهولين.

ففغضب عباد الشمس الأسود وقال: «اهبطوا لضرب هذا الأحمق!».

فأول من اندفع هو سمكة السماء الذي ما زال خده ينزف. ثم تبعه بعد ذلك كل الأطفال الذين ضُربوا والذين لم يُضربوا وأحاطوا بعباد الشمس الأسود وهويوا. كان الأطفال في منتهى الغضب، فلم يتوقعوا أبدًا أن هويوا الذي لم يعيروه اهتمامًا من قبل يصير اليوم قاسيا هكذا!

إنه شخص وقح ومتغطرس! على أي أساس يفعل هذا؟

إنه ذلك الطفل الذي يرتدي أقذر وأقدم ملابس في البلدة هو الذي يعتدي عليهم اليوم، إنه ذنب لا يُغتفر! ذنب لا يُغتفر!

ركلوه ولكموه وصفعوه كثيرًا، وقرصوه بأصابع يدهم وتحسسوا بأيديهم سرواله بكل وقاحة. شعر عباد الشمس الأسود بوخز مؤلم في كتفه، فمسح عرق جبينه، وصرخ في الأطفال قائلًا:

«اضربوه! اضربوا ابن الأعرج! اضربوه!».

ضرب وصراع وصراع وضرب؛ حتى فقد هويوا قوته تمامًا، وصار كالوحش الصغير المجروح، يهمس من حلقه، ويضع أصابعه العشر في الوحل. أزاحه الأطفال وتسلقوا المقبرة الكبيرة وهم يقولون: «إنه القذر الفقير».

قال ابن الجزار الأصغر تشنغ دا: «إنهم مدينون لنا بثمن اللحم لعامين أو ثلاثة!».

ثم جلسوا على المقبرة الكبيرة بجانب بعضهم كسرب من النسور.

تمدد هويوا على الحشائش وهو يشعر أن جسده كله يؤلمه، وكأنه نسي كل ما حدث له للتو، نظر بعينيه إلى السماء فوجد سربًا من الطيور الكبيرة ذات اللون الرمادي والأبيض تحلق في السماء بهدوءٍ وثباتٍ وانسيابية، وسرب من العصافير يزعجها من حين لآخر، ولكنها لا تؤثر على حركة طيرانها.

غنّى الأطفال فوق المقبرة الكبيرة بعض الأغاني التراثية القديمة التي كان يغنيها الكبار، ولكن غناء الأطفال لها يبدو غريبًا ومضحكًا.

- 7 -

شعر سمكة السماء بانتفاخ في بطنه، فوقف وفك حزام سرواله وتبول؛ فنزل البول على شكل قوس فوق المقبرة وكان منظرا جعل الأطفال يشعرون برغبةٍ في التبول، فوقفوا جميعًا وفكوا أحزمة سراويلهم وتبولوا، وسارت مياه البول في إتجاه واحد وهو المكان الممدد به هويوا!

لم تشرب التربة البول كله، بل تجمع على شكل قناة صغيرة، وظل يمشي حتى وصل إلى أسفل المقبرة بجانب هويوا.

صار الطين بجانب يد هويوا رطبًا وسرعان ما تحول إلى وحل. ولم يستطع سحب يده، فتخلل بولهم بين أصابع يده ووصل إلى جسده. جلس الأطفال على قمة المقبرة في هدوءٍ بعدما تبولوا. إنهم لم يتسلقوا هذه المقبرة من قبل، والآن قد جربوا شعور تسلقها.

مال هويوا برأسه فرأى العصا الخشبية التي كان ممسكًا بها لا تبعد عنه كثيرًا، فأخرج يده التي كانت غارقة في الوحل الممزوج بالبول، ومدها ببطء تجاه العصا. ما زالت عيناه تنظران إلى السماء، وأصابعه الخمسة تسير تجاه العصا الخشبية كأنها خمسة حيوانات، وحين أمسك بالعصا لم ينهض على الفور، أمسكها مرارًا وتكرارًا وكأنه يفكر ما هو أفضل وضع لإمساكها، وأخيرًا قبض عليها.

نهض ببطء وكأنه عود شتلة كان راقدًا وبدأ يستعيد قوة استقامته تحت ضوء الشمس، ثم نظر إلى قمة المقبرة، وارتسمت على زاوية فمه ابتسامة طفيفة، ما أشعر الأطفال الجالسين فوق المقبرة بقشعريرة لا تتوقف، ثم وقف مُهنئًا.

ثم انحنى بجسده إلى الأمام وصعد إلى المقبرة دون أن يرفع رأسه، فوقف الأطفال جميعًا واكتشفوا أنه لم يبق معهم ولا عصا واحدة، فقد تركوها بالحقل أسفل المقبرة.

توجه هويوا إلى الأمام، وكأنه بالفعل يتسلق جبلًا خاليا. أراد طفل منهم الهجوم عليه من أعلى المقبرة، ولكنه لم ينظر إليهم واتخذ فجأة وضع الهجوم بالعصا الخشبية، ما جعل الأطفال الذين استعدوا لمهاجمته يتراجعون.

صرخ عباد الشمس الأسود: «احموا المقبرة»، ولكن لا أعرف لِمَ تراجع خطوتين للوراء. كان من الطبيعي أن يهجم على هويوا ويسقطه أسفل المقبرة فيستطيع فعل ذلك بمفرده، ولكنه شعر بخوف مفاجئ. وأخيرًا أمسك أحد الأطفال بقطعة من الطوب المكسور التي قذفها عليهم هويوا للتو، وألقاها في وجهه، فسقط هويوا فوق المقبرة مُخدِثًا صوتا عاليا، ما أرعب كل الأطفال فبدا لون وجوههم بلون التراب.

لن ترى سوى هويوا أحمر العينين، ممسكًا بالعصا الخشبية ويصعد ببطء، وقد ألصقت الدماء خصلة من شعر رأسه بجبينه، ويسيل مجريان أو ثلاثة من الدماء بأطوال متفاوتة على جبينه ببطء.

ولكنه ظل ممسكًا بالعصا الخشبية ويمشي تجاه المقبرة وكأن لا أحد بجانبه...

وبينما هو يمشي تجاه مقبرته، كان الأطفال يتراجعون خطوة خطوة للوراء حتى سقط أغلبهم أسفل المقبرة الكبيرة. ثم ارتسمت ضحكة حقيقية بزاوية فمه، وحين اقترب من المقبرة، رفع رأسه وأظهر أسنانه البيضاء كالثلج.

عاد الغراب مرة أخرى مع غروب الشمس، وأخذ ينعق بصوت حزين في البراري الواسعة. وتشتت بقية الأطفال الثمانية، وفروا مذعورين، ولم يتوقفوا إلا بعدها بفترة طويلة، فأداروا أجسادهم ونظروا إلى المقبرة الكبيرة.

وقف هويوا بثباتٍ على المقبرة، ولا أعرف متى قطع كُمّ قميصه ولفّه حول جبينه، ولكن الدم ما زال يتسرب من القماش الأبيض؛ فخلع قميصه تمامًا وربط الكُمّ الآخر على رأس العصا الخشبية، وغرسها بكل قوته في الطين.

هبت رياح المساء قوية، فرفرف معها قميصه في الهواء مصدرًا صوت صفير. وما زال نصف قرص الشمس لم يغرب بعد، فبدا أحمر بلون الدماء، وانعكس ضوء الشمس على جسد هويوا، فبدا خيال جسده والمقبرة كقطعة سوداء.

لم يعد وجه هويوا واضحًا للأطفال، ولكنهم شعروا بنظراته الحمراء.

وفي الليل، نادى من بعيد كثيرٌ من أهالى البلدة على أطفالهم ليعودوا للبيت، فاستغل الأطفال الفرصة وتفرقوا وعادوا إلى بيوتهم.

كُتبت المسودة الأولى في الثالث من ديسمبر عام 2012 بسكن العلم الأزرق بجامعة بكين، ليلًا.

كُتبت النسخة المعدلة في الثالث من يناير عام 2013 بسكن العلم الأزرق بجامعة بكين، مَساءً.

ستة وستون منعطفًا

هذه القرية الجبلية تسمى: فنغلينكوه(5). يعيش الكبار والصغار معًا في القرية. ومن بين مجموعةٍ من الأطفال هناك ثلاثةٌ يدرسون بالمدرسة الابتدائية، وهم أصدقاء مقرّبون لا يفترقون طوال اليوم، وأسماؤهم: وانغ، وتسون، وياتسي. في هذا اليوم أخذ الرّفاق يلعبون في القرية لعبةً تسمى: «من يفتح عينه يموت!». وعلى الرغم من أنّ تلك اللعبة قديمة الطّراز، فإنّها لم تؤثّر على مزاجهم السعيد. ظلّ الأطفال الثلاثة يلعبون في همّةٍ ونشاطٍ، وإذا بسيّارةٍ متوسّطة الحجم قادمة من داخل المدينة، تتوقف على جانب الطريق السريع في القرية.

كان هذا الطريق يشهد ازدحامًا شديدًا؛ لكنه هُجر قبل بضع سنواتٍ، وحلّ محلّه طريقٌ جديدٌ أكثر اتّساعًا ومختصرًا إلى حدٍّ كبير. كان ذلك الطريق المهجور من الطرق الجيّدة، وإن كان لا يزال سهلا للغاية، وليس به أيّ كسرٍ أو تلفٍ، وعلى الرغم من أنه لم تعد هناك سيّاراتٌ تمشي فيه، فإنّه لا يزال يشهد مرور العربات التي تجرّها الثّيران، أو تلك التي تجرّها الخيول، أو عربات القمامة المفتوحة من الأعلى وتُجرّ يدويًا، ونادرًا ما تمرّ سيّارةٌ من هذا الطريق.

فُتح باب السيارة، ونزل منها عددٌ من أطفال المدينة، يبدو أنّهم في عمر وانغ. كان الأطفال يرتدون الملابس الرياضية الضيقة، ويضعون فوق رؤوسهم خوذات الأمان الملوّنة، ومع كلٍّ منهم لوح تزلّجٍ؛ منهم من يحمله في يده، ومنهم من يضمه في أحضانه، ومنهم من يحمله تحت إبطه، وبعد وقتٍ قصيرٍ، واصلت السيارة تقدّمها للأمام مرّةً أخرى، وفي لحظةٍ كان جميع أطفال القرية يحيطون بالمكان؛ بل جاء أيضًا العديد من الكبار؛ وذلك لأنّ كبار القرية وصغارها لم يروا مثل هذا المشهد من قبل.

كان معهم أستاذٌ طويل القامة، ذو بشرةٍ سوداء، ويرتدي أيضًا ملابس رياضيةً ضيقةً، وخوذة

أمانٍ على رأسه. وضع لوح التزلج الأكبر على الطريق، ثم ضغط على اللوح بقدمه اليمنى، ومن خلال حواره مع أولئك الأطفال، عرف أطفال القرية أنّ اسم هذا الأستاذ هو: (ما)... الأستاذ (ما).

قال الأستاذ (ما) بصوتٍ عالٍ لأولئك الأطفال: «من هنا سنسير 50 كيلومترًا إلى الأمام؛ حتّى نصل إلى مكانٍ يسقى وادي (بغونيا)، وهو في حالة انحدارٍ تامٍّ، وقبل بضعة أيام تفقّدت أنا والأستاذ (ليو) والأستاذ (مي) المكان، واستكشفناه أربع مرّاتٍ، وشعرنا أنّ هذا الطريق بكلّ سهولةٍ هو المكان الأفضل لممارسة رياضة التزلج والتنافس؛ فهو حقًّا مكانٌ ممتازٌ. هذا الطريق مهجور، كما لو كان لم ينشأ ليكون طريقًا للسيارات؛ بل ليصير طريقًا للتزلج، لكن لماذا التزلج من الأعلى ممتعٌ للغاية ويجلب البهجة؟ أوّلًا: لأنّ هذا الطريق منحدر، ثانيًا: لقد حسبنا بدقّةٍ مسافة أكثر من 50 كيلومترًا، وجدنا أنّ به ستّةً وستّين منعطفًا، فليتخيّل كلٌّ منّا، كيف سيكون شعورنا عندما نقوم بالتزلج والطيران بين المنعطفات! وأهمّ من ذلك، هو أنّه من الآن فصاعدًا يمكننا بسهولةٍ أن نطلق على هذا الطريق اسم: (المدرّج الجيّد)؛ فله جانبان يخلوان من المنحدرات والأخاديد، كما أنّه ليس غابةً؛ بل منحدرًا رقيقًا، وبطبيعة الحال يجب عليكم أن تحذروا! فلا يجب أن تستخفّوا بالأمر، أو أن يخدعكم النّجاح.

بعد أن قال المعلّم (ما) مرّةً أخرى مجموعةً من الملاحظات والتّنبيهات عن التزلج، أكمل: «الآن المعلّم (ليو) والبقيّة سيقودون السيارة مباشرةً إلى وادي (بغونيا)، وسينتظرونكم هناك؛ فتلك هي نقطة النهاية، وسيحسبون لكم النّتائج؛ فاستعدّوا جيّدًا». ونظر إلى ساعته وتابع قائلًا: «بعد ربع ساعةٍ من الآن نلتقي عند خطّ النهاية، هذا هو الوقت الذي حدّدناه أنا والمعلّم (ليو)، وبعد سماع صوت الصّافرة سنرى من سيتزلّج ويصل أوّلًا».

لم يُحضر فتيان المدينة أيّ شيءٍ؛ فكلّ شيءٍ كان جاهزًا بالفعل، وفي ظلّ نظرات عددٍ لا يُحصى من الأطفال والبالغين في الريف، وقفوا في منتصف الحشد، كما لو أنّهم معروضات ثمينة بأحد المعارض. يتميّز أطفال المدينة بالبشرة البيضاء، والسيقان الطويلة، وتبدو أجسادهم نظيفةً للغاية، كأنّهم سربٌ من البط الأبيض يسبح في النهر دون أن يختلط به أيّ لونٍ آخر. يمكن التفريق بوضوحٍ بينهم وبين العالم المحيط بهم. وحين اجتمعوا معًا، بدوا كأنّهم يعرفون قدرهم وواثقين بأنفسهم. عيونهم لامعة، وينظرون إلى أعلى قليلًا، وهو ما يدلّ على ثقتهم بأنفسهم، ويظهر عليهم أيضًا القليل من عدم المبالاة.

Telegram:@mbooks90

صرخ المعلّم (ما) مناديًا: «اجتمعوا!»؛ فاصطفّ أطفال المدينة سريعًا صفًّا واحدًا، ووضع الجميع إحدى القدمين على الأرض، والأخرى على لوح التزلج، ثمّ رفعوا رؤوسهم وأجسادهم إلى الأمام. ساد الصمت المكان. لم يكن هناك سوى صوت الرياح المندفعة من بين الأشجار،

وخرير المياه التي تتدفق من أحد الجداول القريبة، وفجأة، صدر صوت طلقٍ ناريٍ!

صعد أطفال المدينة فوق ألواح التزلج وجروا بها، دون أن يروا رد فعل صغار القرية وكبارها. كان ذلك المنحدر كبيرًا إلى حدٍّ ما، وكانت ملابس أولئك المتزلّجين الصّغار تهتزّ من شدّة الرياح؛ ففتح الجميع أذرعهم، حتى يحافظوا على توازنهم، وذكّر ذلك المنظر كلّ أطفال القرية بالنسر الذي يطير في السماء وينحدر بطريقةٍ انسيابيّةٍ؛ حيث يفتح النسر جناحيه، ويرتعش ريشه في الهواء دون توقّفٍ. وكان أمامهم منعطفٌ؛ فانحرف أطفال المدينة واحدًا واحدًا بزاويةٍ نحو الجانب، حتى يعبروه، فكانوا يشبهون النسر الطائر بصورةٍ أكبر. كان ذلك في أواخر الخريف، وكان المكان ممتلئًا بأوراق القيقب الحمراء.

عندما مرّ المتزلّجون من ذلك المنحنى الكبير، واجهتهم موجةٌ كبيرةٌ من رياح الخريف، فرأوا أوراق القيقب تتساقط من مكانٍ عالٍ، وفي لحظةٍ كان أولئك المتزلّجون النسور يطيرون وسط مطرٍ أحمر اللون بفعل أوراق القيقب. بقي هذا المشهد للحظاتٍ ثمّ تلاشى، فبعد أن عبروا المنعطف حجبتهم الغابة، وكانوا يرون فقط أوراق القيقب التي تتساقط متفرّقة.

كان وانغ، وتسون، وياتسي، يتابعونهم طوال الوقت من أعلى شجرة قيقبٍ ضخمةٍ، وعيونهم تمتلئ بالانبهار والحماس. وعلى الرغم من اختفاء المتزلّجين بالفعل عن الأنظار، فإنّهم ما زالوا يتابعونهم وينظرون إليهم، كما لو كانوا نسورًا تنحدر عن مجال رؤيتهم.

طُبعت تلك اللحظة في نفوسهم إلى الأبد؛ ولا أحد يعرف متى تفرّق صغار القرية وكبارها، ولم يتبقّ سوى صوت رياح الخريف الخفيفة التي تمرّ بالغابة والحقل.

وعلى الرغم من أنّ اللعبة لم تنته بعد، فإن الثلاثة ليست لديهم أيّ نيّةٍ للّعب؛ لأنّ تلك اللعبة كانت مملةً للغاية. انزلق الأطفال الثلاثة في الوقت نفسه تقريبًا من أعلى شجرة القيقب، ماذين أرجلهم، ومالوا بأجسادهم حتى اتّكؤوا على جذوع الشجرة، ثم جلسوا بهدوءٍ أسفلها.

وفي مكانٍ بعيدٍ تحت السماء الزرقاء الداكنة، كان هناك نسران متباعدان وحيدان يطيران أسفل السّحب. جلس الأطفال الثلاثة أسفل شجرة القيقب حتى خيّم الظلام، وعندما حانت لحظة فراقهم، مدّ كلّ منهم يده اليمنى، ووضعوا أيديهم فوق بعضها وتعاهدوا على أن يشتروا لوحًا للتزلج، قائلين: «لا بد أن نشتري لوح تزلج!».

لم يعد الأطفال يريدون اللعب، بل استغلّوا أوقات فراغهم في ادّخار المال. فهم لا يريدون شراء لوح التزلج فقط، بل يريدونه في حالةٍ جيّدةٍ، ويشبه لوح التزلج الخاص بأطفال المدينة. ويوم الأحد ذهبوا معًا إلى الجبل لالتقاط البندق؛ فتسلّقوا الجبل في الصباح الباكر، وبعد

الظهيرة لم يعودوا إلى المنزل لتناول الطعام؛ بل التقطوا بعض الفاكهة البرية وتناولوها، وبعد أن خيم الظلام عادوا إلى منازلهم.

وبعد بضعة أيّامٍ، كان الأطفال قد التقطوا أكثر من مئة جين(6) من البندق، ثمّ ذهبوا معًا إلى السّوق لبيعها. هذا هو أوّل مبلغٍ يستطيع الأطفال جمعه. وعلى الرغم من أنّ ما جمعوه أقلّ جدًا من ثمن لوح التزلج، فإنّهم ما زالوا ممتلئين بالأمل، وكانوا على ثقةٍ من أنّهم سيجمعون المبلغ الكافي لشراء لوح التزلج.

في مساء ذلك اليوم، وعندما كان يحمل كل طفلٍ منهم جوالًا مليئًا بالبندق على ظهره، وهم ينزلون من الجبل، التوى كاحل ياتسي وسقط بسبب الظلام الشديد، وتدحرج من أعلى الجبل حتّى أسفله.

تمزّق الجوال بسبب شوكةٍ، وتناثر البندق في أنحاء الطريق، وتسبّب حجرٌ بقطعٍ حادٍّ في ذراع ياتسي، وسالت الدماء من ذراعه، وتألّم لدرجة أن جبينه تعرّق بالكامل، ولم يستطع التّحمّل؛ فبكى.

أسرع كلٌّ من وانغ وتسون نحوه، ومزّق وانغ كُمّه، وضمّد به الجرح، ولكنّ ياتسي ظل يبكي، وقال تسون: «انتظر حتّى أشتري لوح تزلّجٍ، وستكون أنت أول من يلعب به»؛ فأومأ له ياتسي برأسه وهو يبكي.

بدأ الظلام يخيّم على المكان، وأمسك الأطفال الثلاثة يد بعضهم، وبدؤوا يتحسّسون طريقهم إلى أسفل الجبل، وعلى طول الطريق ظلّ الأطفال يصرخون بصوتٍ عالٍ وهم يردّدون أغنية تتوارثها الأجيال. كانت هذه الأغنية بالنّسبة إلى الأطفال الثلاثة قديمةً وغريبةً؛ لكنّها كانت ممتعةً للغاية، وهي:

قشّ القمح الكبير، قشّ القمح الصغير

هناك تسكن الأخت زهرة

إلى متى ستظلين هنا؟

إلى الخامسة عشرة، وبعد عامين آخرين يجب أن تتزوجي.

أمّي، أمّي. أترافقينني للخارج؟

حوض نحاسٍ كبيرٍ، حوض نحاسٍ صغيرٍ

رافق ابنتي للخارج

أبي، أبي. أترافقني للخارج؟

ناد النجّار لتصليح الخزائن

ناد الخيّاط لحياكة الملابس

أخي، أخي. أترافقني للخارج؟

سوار الذهب. قلادة الزمرّد. كرّست حياتها لمرافقة شقيقتها

زوجة أخي، زوجة أخي. أترافقينني للخارج؟

الأوعية المكسورة. الجرّة الفاسدة

أرسلوا الفتاة لتتزوّج الرّجل

أعلى الباب الأماميّ، قيد الباب الخلفيّ

لا تدع الفتاة الميّتة تدخل بيتي.

وكانوا يغنّون بسعادةٍ بالغةٍ.

إنّ الأطفال الثلاثة لا يقولون سبب حبّهم للوح التزلج بوضوح، وذلك على الرغم من أنّهم لم يلمسوه بعد، وعندما وصلوا إلى الطريق توقّفوا، ثمّ نظروا إلى الطريق في الأسفل، وفي ذلك الوقت، كان القمر هلالا، وكان نوره منعكسا على الأسفلت، كما لو كان ذلك الطريق نهرًا منحنيًا يتدفّق لأسفل. وكانوا يريدون أن يأخذوا لوح التزلج ويذهبوا في رحلةٍ بعيدةٍ.

قرّروا أن يذهبوا لصيد السمك؛ حيث يوجد بعد القرية جدولٌ طويلٌ، ضيّقٌ أو واسعٌ، هادئ الأمواج أو هائجٌ، غير معروفٍ من أين ينبع، أو أين يصب!

أخذ الأطفال الثلاثة الشبكة والطعم، وذهبوا إلى الجدول. امتلأت الشبكة بالسمك الصغير؛ ولكن لم يصطادوا سمكةً كبيرةً واحدةً. لكن السّمك الصغير لا يجلب مالًا وفيرًا، بل السمك الكبير فقط هو الذي سيباع بمبلغ كبير.

أين السمك الكبير؟

ظلّ الأطفال الثلاثة ينظرون داخل الجدول؛ فهناك المياه العميقة وأيضًا الضحلة، وكانت الأسماك واضحةً للغاية في المياه الضحلة، حتّى ذيولها الشفّافة كانت كلّها واضحةً للغاية، لكن

كانت جميعها أسماكًا صغيرةً. وحدها المناطق العميقة توجد بها الأسماك الكبيرة، ولكنّ الرؤية ليست واضحةً في تلك الأماكن العميقة.

عليهم أن يلقوا بالشبكة داخل المياه، ويدعوها تخبرهم ما إذا دخلت بها سمكةٌ أم لا! لا يجب أن يلقوا الشبكة في المياه الضحلة، بل في المياه العميقة. ظلّوا يلقون الشبكة مرّةً تلو الأخرى، وعندما ألقوها في منتصف المياه تألّقت أشعّة الشمس، وكان المشهد جميلا للغاية. أعجب الأطفال الثلاثة بالمنظر الجميل، لكن ما كان سيعجبهم أكثر هو رؤية الأسماك الكبيرة. ألقوا الشبكة عشر مرّاتٍ وعشرين مرّة أيضًا، ولكنّهم لم يصطادوا سمكةً كبيرةً واحدةً. لم يقتنع الأطفال الثلاثة بما يحدث، كما أنّ هيئتهم كانت شرسةً للغاية، ويشتمون ويلعنون من داخلهم، وما زالوا يلقون السّباك واحدةً تلو الأخرى بالتدريج، ويبتعدون تدريجيًا عن القرية، وعندما اقتربت الظهيرة، حدثت المعجزة أخيرًا!

لم يكونوا قد سحبوا الشبكة من الماء بعد، حين رأوا رذاذ أمواج كثيرة، والشبكة مشدودةً وتهتزّ دون توقّفٍ؛ فسحبوا الشبكة معًا، وشعروا أنّ داخل تلك الشبكة حياةً قويّةً للغاية تتمسّك بالشبكة، ولا تزال تكافح.

تحمّس الأطفال الثلاثة لدرجة أنّهم أرادوا أن يقرصوا أنفسهم.

ظلّت السمكة تكافح داخل الشبكة، كما لو أنّ هناك عجلات عربةٍ تدور بقوّةٍ داخلها، وأخيرًا رُفعت الشبكة من الماء، وإذا بشعاعٍ فضّي لامعٍ بمنتصفها. التفّت الشبكة حول نفسها، وظلّت تسقط لأسفل حينًا، وترتفع لأعلى حينًا آخر. كانت السمكة كبيرةً للغاية لدرجةٍ فاقت توقّعاتهم.

لم تُسحب السمكة الكبيرة بالكامل إلى ضفة الجدول، ولم يتمالك الأطفال الثلاثة أنفسهم وألقوا على الفور بحبل الشبكة، ثمّ أسرعوا نحوها، لكن في تلك اللحظة قفزت السمكة الكبيرة، وعادت إلى المياه مرّةً أخرى، فقد فتحت فجوةٌ في الشبكة وهربت أخيرًا.

لم تصل السمكة الكبيرة الهاربة إلى المياه العميقة بعد، لكنّ تقدير حركتها يشير إلى أنّها تتّجه عادةً نحو شرق الجدول الصغير، وعلى الفور لحق الأطفال الثلاثة بالسمكة الكبيرة، وعندما نظروا إلى الأمام وجدوا أنّه على الرغم من أنّ الجدول به الأماكن العميقة والأماكن الضحلة، فإنّه لا يوجد مكانٌ لتختبئ به السمكة الكبيرة، فطولها متر واحد، وعندما تسبح إلى الأمام، تصير المياه كقطعة حريرٍ تُقص بمقصٍّ ضخمٍ بسرعةٍ تفوق الخيال، خلفها جرحٌ كبيرٌ لا يُشفى مع الوقت.

اجتهد الأطفال الثلاثة في تتبّع السمكة الكبيرة، وعندما وطؤوا المياه بأقدامهم، انتشر

رذاذ المياه وعددٌ لا يحصى من قطرات المياه؛ فانتشرت قطرات المياه تحت أشعّة الشمس، ثمّ تساقطت ملوّنةً زاهيةً، وكانوا قد شاهدوا من قبل فيلمًا عن الحروب البحريّة في ملعب المدرسة. تلك السمكة الكبيرة التي هربت منهم بجنونٍ، ذكّرتهم بالطوربيد الذي يُطلَق من السّفينة ويمرّ من خلال الماء.

سقط الأطفال مرارًا وتكرارًا، وتبلّلت أجسادهم بالكامل، واستنفدوا قوّتهم البدنيّة، ولكن السمكة الكبيرة كانت لا تزال تواصل الهرب بنفس سرعتها في البداية، وبدأت تتّسع المسافة بينهم وبينها، ويتقلّص شقّ المياه من خلف السمكة الكبيرة، ومع ذلك لم تظهر على السمكة علامة التوقف عن الهرب، كما لو أنّها تنوي السباحة إلى المكان الذي تشرق منه الشمس.

سقطوا الواحد تلو الآخر في المياه، وكافحوا من أجل الصعود، ولم يجروا إلى الأمام؛ بل لم تكن لديهم طاقة للجري، ولكنّهم لم يريدوا التخلّي عن تلك السمكة الكبيرة، فأمسكوا بيد بعضهم، ونظروا إلى الأمام، ومشوا دون توقف.

يبدو أنّ لديهم أيضًا عزيمة السمكة الكبيرة ونيّتها، وهي الاتجاه مباشرةً إلى المكان الذي تُشرق منه الشمس! وأخيرًا توقّفت السمكة الكبيرة عن الهرب داخل شجيرةٍ مائيّةٍ، لكن لا أحد يعلم هل هذا لأنّ طاقتها قد استنفدت بالكامل؟ أم لأنّها شعرت بالنجاة من تلك الكارثة بالفعل؟

وفجأةً اختفت السمكة الكبيرة، الأمر الذي جعل الأطفال الثلاثة يشعرون بخيبة أملٍ كبيرةٍ؛ ولكنّه أثار حيويّتهم أيضًا، ففتحوا أيديهم كثلاثة خيول، واندفعوا نحو المكان الذي اختفت به السمكة. ولم يكن اندفاعهم عاديًا، بل كان اندفاعًا نحو خطّ النهاية.

وعندما شعرت السمكة الكبيرة -التي صارت حياتها معلّقةً بخيطٍ- بحركةٍ مضطربةٍ، هربت مرّةً أخرى، فهجم الأطفال الثلاثة عليها، وفجأةً اتّسع جدول المياه، وصارت المياه قليلة بصورةٍ أكبر. صارت السمكة الكبيرة في المنتصف، وانقطعت بها الطرق.

أخذ الأطفال الثلاثة يصيحون بصوتٍ عالٍ، وفي النهاية اكتملت مهمّتهم، وارتموا فوق جسد السمكة الكبيرة، وأمسكوا بالسمكة في المياه، حتّى لم تعد تتحرّك مطلقًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما حملوا تلك السمكة الثقيلة لوضعها على الشاطئ، صاروا لا يملكون القدرة على العودة إلى المنزل؛ فاضطرّوا إلى الاستلقاء على الشاطئ فوق أوراق الشجر الكثيفة والناعمة. رقد الأطفال الثلاثة بجانب السمكة الكبيرة، ثمّ غرقوا في النوم وسط هدير المياه الجارية.

أخذ وانغ المال الذي كان يريد أن يشتري به حذاء سفر، وأخذ تسون المال الذي كان يريد أن يشتري به زيًّا رياضيًا، لكن ماذا عن ياتسي؟ لقد باع زوج الحمام الذي كان يحبه كثيرًا، والآن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صار معهم مالًا حوالي 550 يوانًا، وصار بإمكانهم الذهاب إلى المدينة وشراء لوح التزلج.

في يوم سبتٍ مشمسٍ، وصلوا إلى المدينة. كانوا يشبهون ثلاثة أسماكٍ سبحت ووجدت نفسها داخل نهرٍ كبيرٍ غريبٍ. كانوا متحمّسين قليلًا؛ لكنهم أيضًا يشعرون بقليلٍ من الخوف وعدم الرّاحة. كانت تلك المدينة صاخبةً للغاية؛ حيث يدقّ السّائقون أبواق سياراتهم، سواء كان هناك داعٍ لذلك أم لا؛ أمّا أولئك الذين يقودون الدرّاجات، فهم كما لو كانوا يشعرون بأنّهم وحدهم تمامًا، فكانوا يضربون الجرس دون توقّف.

كان راكبو الدرّاجات كثيرين للغاية، ويملؤون الشوارع بصوت أجراس دراجاتهم، كما كان هناك الباعة في الشوارع، يستخدمون الأصوات العالية المتناغمة والعجيبة للغاية أثناء البيع والشراء. هذا عملٌ مثمرٌ وشاقٌّ للغاية.

حياةٌ طويلةٌ عاشها الأطفال الثلاثة في قريةٍ جبليّةٍ هادئةٍ، ووسط هذه الأصوات التي يسمعونها، شعروا أنّه ليس لديهم أي فكرةٍ عن تلك الحياة؛ فهم يتجنّبون المارّة والسيّارات وهم متصلّبون ومتوتّرون، ومع ذلك كانوا لا يزالون يصطدمون بأجساد المارّة، وينظر إليهم المارّة الذين يصطدمون بهم، أو يقولون: «أيّها الفتى، أليس لديك عينان؟».

أمضوا ساعةً أو ساعتين حتّى استطاعوا بصعوبةٍ أن يتكيّفوا مع هذه المدينة، وبعد فترةٍ من الوقت، تمكّنوا من الاسترخاء بداخلها؛ بل شعروا بحريّة. أخذوا ينظرون هنا وهناك، ولم يقلقوا بشأن إتمام أمرهم الذي جاؤوا من أجله، وعلى أيّ حالٍ، فإنّ أموال شراء لوح التزلج بالفعل جاهزةٌ، والسّؤال الآن: أيّ قطعةٍ سيشترون؟

بالمقارنة مع وانغ وياتسي، كان تسون يلعب بقليلٍ من الراحة، وذلك لأنّ أموال شراء لوح التزلج كانت بجيبه هو.

وبعد أن تنزّهوا لفترةٍ من الوقت، قرّروا ألّا يتنزّهوا مرّةً أخرى، بل يذهبوا سريعًا لشراء لوح التزلج ويعودوا إلى المنزل، وبعد عشرات الكيلومترات سألوا المارّة عن متجرٍ لبيع ألواح التزلج، ثمّ مشوا طبقًا لوصف المارّة.

مشى الأطفال الثلاثة، ووجدوا مجموعةً كبيرةً من الناس بجانب الطريق، يتجمّعون في ثلاث طبقات دائريّةٍ في الدّاخل، تحيط بهم ثلاث طبقاتٍ من الخارج على شكل دائرةٍ، ويبدو أنّ هناك مشهدًا خاصًا في الدّاخل، فمن الخارج لن تتمكّن من الرّؤية بوضوحٍ.

شعر الأطفال الثلاثة بالفضول، فأرادوا أن يخترقونهم إلى الداخل؛ لرؤية ما يحدث بالضبط.

يبدو أنّ ما يجتمع عليه الناس شيءٌ صغيرٌ لكنّ جاذبيّته عاليةٌ؛ حيث جذبهم بقوّةٍ حشدٌ كبير من الناس. كان ذلك الحشد مثل جدار بشريٍّ محكمٍ، لا تمرّ من خلاله الرياح، كما لو أنّهم أجبروا على الوقوف في هذا المكان، حتّى القذائف لا يمكنها أن تخترق صفوفهم. وكلّما مرّ الوقت تحفسوا أكثر وزاد فضولهم، ومرّةً أخرى نسوا أمر لوح التزلج مؤقّتًا، ولكن دارت فكرةٌ واحدةٌ فقط في ذهنهم: العبور إلى الدّاخل!

كان الأطفال الثلاثة يشبهون ثلاثة ثعالب تريد الدخول إلى بيت الدجاج، ويبحثون عن فجوةٍ بين الحشد ليتمكّنوا من الدّخول منها، وربّما لأنّهم أذكياء، أو ربّما لأنّ ذلك الحشد كوّن جدارًا متقاربًا وقويًا، فلم يتخيّل أحدٌ كم هم ماهرون، فلا أحد يعرف متى اخترقوا الحشد تباعًا، ودخلوا من أماكن مختلفةٍ، فقد دخلوا جميعًا إلى العمق.

والآن استطاع الأطفال رؤية المشهد بالداخل بمنتهى الوضوح؛ فهناك شابٌّ ذو لحيةٍ قصيرةٍ يجلس القرفصاء، وأمامه صحنٌ صغيرٌ مقلوبٌ، وتوجد بذور عبّاد شمس متناثرة بجانب الصحن الصغير المقلوب، وهناك أشخاص يجلسون القرفصاء داخل الدائرة، وكلّ واحدٍ منهم يمسك مالًا بيده بإحكامٍ، ويترقّبون في توتر أيّ حركةٍ من ذلك الشاب.

نظر الشاب الصغير إلى مَن يمسكون المال بأيديهم، ورفع بيده الصحن الصغير، وباليد الأخرى التقط بذرتين من بذور عبّاد الشمس المتناثرة فوق الأرض، ثمّ قال: «أيّها الجمع، فلينظر كلّ منكم بوضوحٍ!». وعلى الفور ألقى بذرتين من بذور عبّاد الشمس أسفل الصحن الصغير أمام الجميع، ثم قلب الصحن فوقهما بسرعة.

أمّا الأشخاص الذين يمسكون المال في أيديهم؛ فوضعوا المال أمامهم، وسمع الأطفال بعضًا منهم يقول: «يوجد! يوجد!»، والبعض الآخر يقول: «لا يوجد»؛ فصاح الأطفال الثلاثة أيضًا قائلين: «يوجد! يوجد!».

فقد رأوا بوضوحٍ ذلك الشاب وهو يضع بذرتين من بذور عبّاد الشمس أسفل الصحن. لم يتسرّع ذلك الشاب في رفع الصحن، وقال: «سأسألكم مرّةً أخرى: هل الجميع متأكّدٌ أنّه لا يوجد؟». فقال بعضهم: «يوجد! يوجد! يوجد!».

أشار الشاب الصغير إلى هؤلاء الذين يراهنون بالمال وهم يؤكّدون ما قالوه تباعًا؛ فبعضهم يقول: «يوجد!»، وبعضهم الآخر يقول: «لا يوجد». انتهى التأكيد؛ لكن لم يتسرّع الشاب أيضًا في رفع الصحن، لكنّه أوّلًا وضع مال جميع من قال: «يوجد» في جيبه، ثمّ رفع الصحن، وفجأةً صاح الحشد صيحةً تدلّ على الاندهاش والتعجّب، وعلى الفور شعر الأطفال الثلاثة بالحماقة، فأسفل

الصحن فارغٌ، لا يوجد به شيء.

بعد ذلك، رأى الأطفال الثلاثة الأموال المختلفة والملوّنة حائرةً بين ذلك الشاب والمتراهنين؛ فهناك الفائزون والخاسرون، وقلوبهم تنتفض من التوتر والقلق، فعندما يرون الشاب وهو يضع بذور عبّاد الشمس أسفل الصحن بمنتهى الوضوح، ولا يجدون البذرتين عندما يرفع الصحن، لكن عندما لا يرونه يضع البذرتين أسفل الصحن، يجدون البذرتين عندما يرفع الشاب الصحن، وبعد أن فعل ذلك عدّة مرّات، قرّر الأطفال الثلاثة من داخلهم أن يعكسوا الإجابة، فعندما رأوا الشاب يضع البذرتين أسفل الصحن، قالوا: «لا توجد بذرتان». لكن هذه المرّة عندما رفع الصحن وجدوا بذرتي عبّاد الشمس أسفله، وهكذا دائمًا ما تتعارض الحالة مع اختياراتهم.

وبعد أن خرج الأطفال الثلاثة من بين الحشد، ظلّوا طوال الطريق حائرين حول ما رأوه، ولا يستطيعون تفسير كيف يضع ذلك الشاب بذور عبّاد الشمس أسفل الصحن بوضوحٍ أمام الجميع، وبعد أن يرفعه تختفي البذور، فأين ذهبت بذور عبّاد الشمس؟!

قالوا عددًا كبيرًا من التّخمينات، ولكنّهم في النهاية لم يصلوا إلى إجابةٍ محدّدةٍ، حتّى وصلوا إلى متجرٍ لبيع ألواح التزلج.

كان متجرًا كبيرًا، وبه ألواح التزلج الطويلة والقصيرة، ومتعدّدة الألوان التي تُبهر الناظرين، وهناك ألواحٌ رخيصة الثمن، فيمكنهم شراء لوحٍ للتزلج يقلّ ثمنه عن مئة يوان، لكن ماذا إذا كان باهظ الثّمن؟ مدّ الأطفال الثلاثة ألسنتهم من الدّهشة عندما رأوا أسعارا لألواحِ التزلج تزيد على عدّة آلاف من اليوانات! فهم يستطيعون فقط شراء لوح تزلّجٍ بحوالي 500 يوان.

بعد اختيارٍ دقيقٍ، قرّر الثلاثة شراء لوح التزلج الأزرق؛ فذلك اللوح يبدو مرنًا للغاية، لديه جانبان مرتفعان، مثل القارب الطّويل الرّفيع، كما أنّ اللون الأزرق الداكن رائعٌ، يشبه لون السماء مساءً، وثمنه 510 يوانًا.

حسبوها قليلًا، ووجدوا أنّهم أنفقوا خمسة عشر يوانًا للوصول إلى المدينة، ويجب أن ينفقوا مثلها للعودة إلى ديارهم، كما سيحتاجون تناول الطّعام، ويمكن أن يبتاعوا بعض الخبز والمياه بالعشرة يواناتٍ المتبقّية.

كان تسون يسأل كلًا من وانغ وياتسي: «هل أنتم متأكدون من شراء هذا اللوح للتزلج؟»، وهو يمدّ يده ليضعها في جيبه.

- «نعم سنشتريه!».

أجاب كلٌ من وانغ وياتسي مؤكدين.

بعد أن أجابوه، تغيّر لون وجه تسون، وصار شاحبًا للغاية. وكانت يد تسون لا تتحرّك داخل جيبه، وبدا عليه الخوف والقلق. سأله كلٌ من وانغ وياتسي: «ماذا حدث؟»؛ فأجابهم بحزن وهو يكاد يبكي: «المال. المال غير موجود».

ما إن سمع كلٌ من وانغ وياتسي هذا الكلام، حتى وضعا أيديهما في الوقت نفسه بصدر تسون، ووجدا الجيب فارغًا.

فسأله وانغ: «هل وضعته في هذا؟ هل كان في هذا الجيب؟».

فأجابه: «نعم، نعم وضعت المال داخل هذا الجيب. أنت، أنتما رأيتماني بالفعل وأنا أضعه في هذا الجيب، أليس كذلك؟».

لم يستسلم كلٌ من وانغ وياتسي، وأخذا يفتشان بكلّ قوّتهما داخل جيب تسون، وبعد أن فتشا جيدًا، خلعا عنه قطعة الملابس التي كانت بها النقود. كان واضحًا تمامًا أنّ جيبه فارغٌ، فلقد قلّباه جيدًا، لكنهما لم يصدّقا الأمر بعد، وودّا لو استطاعا أن يجزّاه من ملابسه كلّها ويبحثان فيها.

تجمد تسون كالميت! وقف في ذلك المكان كجذع الشجرة، يسمح لكلٌ من وانغ وياتسي بأن يقلّبا ويبحثا في جسده كما يحلو لهما؛ فهو لم ينظر إليهما، ولم ينظر إلى المدينة؛ لكنه كان ينظر إلى سرب من الحمام يطير في السماء.

وعندما اعترفوا أخيرًا أنّ ما حدث حقيقة، خرجوا جميعًا منكّسي الرؤوس من متجر بيع ألواح التزلج، وفجأةً تذكّروا ذلك الحشد الذي قابلوه في الطريق، وفي الحال حدّدوا المكان الذي سُرق فيه المال منهم، فعادوا معًا مرّةً أخرى إلى هناك، لكنهم وجدوا الحشد قد اختفى، حتى إنّهم لم يجدوا آثارًا لأقدامهم، كما لو أنّه لم يكن هناك من الأساس متفرّجون! بحثوا في كلّ مكانٍ عن أولئك الأشخاص، لكن لم يكن هناك أيّ وجهٍ مألوفٍ قد رأوه من قبل.

أدركوا أنّ هذا من الممكن أن يكون فخًا، ومن المؤكّد أنّ بداخل الحشد كان هناك أشخاص استغلّوا الزّحام والفوضى، وأنّ هناك لصًا انتهز فرصة تركيز الجميع مع ذلك الصحن الصغير وسرق أموالهم. شعر الأطفال الثلاثة أنّه لا طاقة ولا قوّةً لهم؛ فجلسوا في الطريق.

تخطّت الساعة الرابعة، وعندما أوشكت الشمس على الغروب، قال وانغ: «فلنعد إلى المنزل».

اتجهوا نحو موقف السيارات، وكانت وجوههم شاحبةً. كانوا يمشون ببطءٍ، وأقدامهم ثقيلةً

لا يستطيعون رفعها من فوق الأرض، ولا يستطيعون المشي، وتُصدر صوت الاحتكاك عند محاولة رفعها. كانوا لا يعرفون المسافة التي قطعوها، ومرّوا بجانب واجهةٍ زجاجيةٍ ضخمةٍ، يمرّ الجميع من أمامها، ثمّ جروا ووقفوا أمامها مرّةً أخرى، واستداروا ونظروا بداخلها. كانت الواجهة الزجاجية عريضةً وعاليةً، لا يوجد أيّ شيءٍ بداخلها سوى لوحٍ للتزلج. كان لوح التزلّج مائلًا معلّقًا في الهواء. وكانت عجلاته الأربع معلّقةً بخيط نيونٍ شفّافٍ غير مرئيٍّ تقريبًا. كان لوح التزلج أبيض اللون ساكنًا في الخلفية الزرقاء، لكنه بدا في عيون الأطفال الثلاثة كأنّه يطير ويرفرف.

ظلّ الأطفال الثلاثة أمام الواجهة الزجاجيّة وقتًا طويلًا حتّى رحلوا ببطءٍ، ولم يقل أحدهم ألّا يذهبوا إلى المحطّة، كما لم يتكلم أحدٌ منهم بما ينوي فعله؛ لكن لم يتّجه أيٌّ منهم نحو المحطّة؛ لكنّهم مشوا حتّى وصلوا إلى شجرةٍ ضخمةٍ أمام منعطف الطريق، وجلسوا أسفلها، وبكلّ سهولةٍ استطاعوا أن يروا تلك الواجهة الزّجاجيّة من موقعهم؛ ولكنّها لم تكن مجرّد نظرةٍ إلى الواجهة الزّجاجيّة؛ بل تطوّر الوضع إلى الجلوس والمشاهدة، وبدا كأنّه مكانٌ غير المكان، وبدأ الظلام يسود المكان تدريجيًا.

تحرّك الأطفال الثلاثة، واتجهوا نحو متجرٍ صغيرٍ على جانب الطريق، واشتروا الخبز والمياه، ثمّ عادوا مرّةً أخرى ليجلسوا أسفل الشجرة، وأثناء تناولهم للخبز وشرب المياه، تحدّثوا ببعض المواضيع التي ليس لها علاقة بلوح التزلج، كما لو أنّهم يمنعون أنفسهم عن الحلم به، فقد انصرف هذا الحلم عن قلوبهم، ثمّ خيّم الظلام وأضيئت المصابيح.

ظلّ الثلاثة جالسين أسفل الشجرة كأنّهم جذر الشجرة الظاهر فوق سطح الأرض. وحجبت أوراق الشجرة الكثيفة والمتشابكة ضوء المصابيح، فمن لم يدقق النظر، لن يكتشف أنّ هناك ثلاثة أطفال يجلسون أسفل تلك الشجرة الكبيرة.

ازدادت ظلمة اللّيل، كما بدأت السيارات تقلّ، ويختفي المارّة. وبعد وقتٍ قصيرٍ، لم يعد هناك أحد في الشّارع، باستثناء سيّارةٍ أو سيّارتين تمرّان سريعًا.

قام وانغ أوّلًا، ولكنّ قدماه كانتا في حالة تخديرٍ تامٍّ، وكاد يسقط، فتمسك سريعًا بجذع الشجرة، وبعد ذلك قام كلٌّ من تسون وياتسي، وفي الوقت نفسه تقريبًا تمسكا بجذع الشجرة؛ وذلك لأنّ رجليهما كانتا مخدّرتين أيضًا؛ فسأل وانغ وهو يرتعش: «هل أنتما خائفان؟»؛ فأجابه كلٌّ من تسون وياتسي، وهما أيضًا يرتعشان: «لسنا خائفين!».

وبعد فترةٍ، دخل الثلاثة في الظلام، وسحب أحدهم طوبةً ثقيلةً من طريقٍ صغيرٍ به متجرٌ

للطوب.

عادوا مرّةً أخرى للجلوس أسفل تلك الشجرة الكبيرة، وبدؤوا يلهثون على الرغم من أنّهم لم يجروا، واستراحوا جيّدًا أسفل الشجرة، حتّى صاروا لا يشعرون بضيق التنفّس؛ فقال وانغ: «لنقم!».

كان الأطفال الثلاثة يشبهون ثلاثة ذئابٍ صغيرةٍ؛ فقد أخذوا الطوب وذهبوا ليهجموا على الواجهة الزجاجية.

وفي الوقت نفسه تقريبًا، قذفوا ثلاث طوباتٍ في اتجاه الواجهة الزجاجية، وعلى الفور استداروا وهربوا داخل الظلام، وجروا طوال الطريق. كان تحطيم زجاج الواجهة الزجاجية الضخمة مخيفًا، وفاق تخيلاتهم، وشكل الزّجاج الصغير المحطّم المتناثر على الطريق سيفزع المارّة كثيرًا، وفي ظلّ هدوء الليل والشوارع الخالية كان صوت تحطّم الواجهة عاليًا للغاية. ليس ذلك فحسب؛ بل امتدّ صداه إلى أماكن بعيدة. عندما سقط الزجاج المحطّم فوق الأرض كانت كلّ قطعةٍ من الزجاج تحت الأضواء تبدو كأنها عينٌ لامعةٌ. لم يجرؤ الأطفال الثلاثة على العودة إلى ذلك المكان مرّةً أخرى، وعندما شعروا أنّهم غير قادرين على الجري مجدّدًا، اكتشفوا أنّهم هربوا إلى حديقةٍ كبيرةٍ للغاية، وكان نور القمر يُنير مساحةً كبيرةً من العشب.

استلقى الثلاثة فوق الأرض، وأخذوا يتأمّلون القمر المعلّق بسماء المدينة، وصاروا لا يفكّرون في أمر لوح التزلج مجدّدًا؛ فكلّ ما يرغبون فيه الآن هو الاستراحة قليلًا حتّى يستعيدوا قواهم، ثمّ العودة إلى ديارهم. ومنذ وقتٍ طويلٍ لم تكن هناك سيّارةٌ ذاهبةٌ إلى قريتهم، فليس أمامهم سوى العودة مشيًا على الأقدام، ربّما سيأتي الفجر ويتمكّنون من العودة إلى الدّيار.

عندما غلبهم النّوم، انزعج طائرٌ كبيرٌ أعلى الشجرة، فرفرف بجناحيه، وظلّ يطير، فأيقظ وانغ، وبالتّالي أيقظ وانغ بدوره كلًّا من تسون وياتسي قائلًا: «قوما، يجب أن نعود إلى المنزل».

عبر الأطفال الثلاثة الحديقة مضطربين حائرين، وخرجوا من باب آخر، ووجدوا طريق العودة إلى ديارهم، وبعد أن مشوا قليلًا، توقّف الثلاثة في الوقت نفسه، حيث وجدوا لوحًا للتزلج أزرق اللون فوق العشب! ولا يعرفون من الذي نسي هذا اللوح في الحديقة.

هجموا في وقتٍ واحد على اللوح، تمامًا كما هجموا على جسد السمكة الكبيرة من قبل.

كان لوح التزلج جديدًا بنسبة 80%، كما أن لونه الأزرق كما يحبون. لا يعرف الأطفال الثلاثة متى ذهبوا، فكان الضباب قد انتشر في السماء، وشعروا بأنّ ما يرونه هو حلمٌ ضبابيٌ غير

واضح. تبادلوا حمل لوح التزلج، وخرجوا من الحديقة في سرعةٍ بالغة.

كانوا طوال الطريق يغنّون في مرحٍ، ويقفزون عاليًا، ويلوّحون بأيديهم تحت نور القمر، وعلى بعد كيلومترين أو ثلاثة فقط من قريتهم شعروا بالتعب؛ فسقطوا فوق كومةٍ كبيرةٍ من القش على جانب الطريق وناموا.

أشرقت شمس اليوم التالي، ولكنّهم لم يستيقظوا بعد. كانت رأس كلٍّ منهم قبالة رأس الآخر، ويضعون لوح التزلج أمام صدورهم، وكلٌّ منهم يضمّ اللوح بيديه.

ومنذ ذلك الحين -باستثناء أوقات الدّراسة- كانوا يقضون كلّ وقتهم في اللعب بلوح التزلج.

يعدّ لوح التزلج نوعًا من ألعاب الأطفال السّاحرة والجذّابة، يسحرهم بمجرّد لمسه، فلا يستطيعون أن يتحرّروا منه أو أن يتركوه، فدائمًا تستمع لهم وهم لا يتوقّفون عن قول: «أعطه لي كي ألعب قليلًا! إنّه دوري أنا الآن! بل دوري أنا الآن».

تزلّجوا، واصطدموا، وسقطوا، وضحكوا بصوتٍ عالٍ، وتجمّدت أسنانهم، ثمّ صعدوا من أجل اللعب مرّةً أخرى. أصيب الأطفال الثلاثة، ولم يصابوا إصابةً واحدةً فقط؛ بل أصيبوا في وجوههم وأذرعهم، أو على ذقونهم، وصاروا كلّهم ملفوفين بالشّاش، ويشبهون الجنديّ الجريح الذي انسحب من الجبهة الأماميّة، وتراجع إلى الخلف.

ولكن لم يشعرهم الدّم والألم بالخوف من التزلج، أو فقدان التّمتّع به، بل على العكس تمامًا، فكلّما لعبوا تزداد شجاعتهم وسعادتهم ومشاعرهم، بالإضافة إلى فرحتهم وصياحهم عند إجادة اللعب بلوح التزلج، والجري به للأمام قليلًا؛ فهم لا يعرفون أنّ هناك شيئًا غير التزلج يستحقّ اللعب به، ولم يتخيّل الأطفال الثلاثة أنّ في هذا العالم يوجد مثل هذا النوع من الألعاب التي تفتن الإنسان، وتجعله يشعر بالإثارة والمتعة. إنّ الانحناء والأعين التي تنظر إلى الأمام، والأشجار والجبال التي تمرّ سريعًا، وصوت الرياح الذي تسمعه بجانب جسدك، ربّما هذا النّوع من الشّعور يوجد فقط في الجنّة. ولم يقدروا على تركه أبدًا.

لم يستمر الانسجام بين الأطفال طويلًا، وكان كلٌّ منهم يقول إنّه لم يلعب الوقت الكافي، ويُلقح كلٌّ منهم إلى أنانيّة الشّخصين الآخرين، وظلّوا يتجادلون باستمرارٍ، وفيما بعد صاروا لا يريدون الكلام معًا، وينظر كلٌّ منهم ببرودٍ إلى من يلعب بلوح التزلج، وفي النهاية تشاجروا معًا؛ بل امتدّ الأمر إلى ضربهم لبعضهم؛ ليس اثنان ضدّ واحدٍ، أو واحد ضدّ واحدٍ؛ بل كلّ واحدٍ منهم يضرب الاثنين الآخرين، وتبادلوا الضّرب، فكانوا يضربون منتصف الوجه عند منطقة الأنف؛ فسال الدّم من أنوفهم وأفواههم، وفي النهاية توالى سقوطهم الواحد تلو الآخر في داخل الحقل

الذي يقع بجانب الطريق.

كان ذلك اللوح الذي لا يوجد مالك له يبدو كأنه يقول: «يجب أن آخذ دوري في التزلج بمفردي أيضًا!».

انزلق ذلك اللوح إلى الأمام، واندفع حتى وصل إلى أحد المنعطفات، ثم اصطدم بشجرة على جانب الطريق؛ فطار في الهواء وانقلب عدة مرات، وسقط فوق الأرض منبطحًا أسفل الشجرة، وبعد أن تعبوا من الضرب، ذهب الثلاثة للبحث عن لوح التزلج وإعادته، وتناقشوا في طريقة عادلة للتزلج، وهي اللعب بطريقة المناوبة، على أن يلعب كلّ شخص منهم ثلاثة أيام، لكن إذا هبت الرياح أو تساقطت الأمطار في الأيام الثلاثة الخاصة بشخص منهم، فجزاؤه العادل أن يقترض أيام الشخصين الآخرين، لكن عليه أن يعيده في الوقت المحدد، وإذا لم يعده يُعدّ خائنًا نذلًا!

على الرغم من أنه في ذلك اليوم كان هناك واحدٌ يلعب بمفرده، لكنّ اللّذين لن يتزلّجا لم يفضّلا البقاء في المنزل؛ فأتيا للمشاهدة والصياح، وإعطاء التعليمات للذي يلعب بلوح التزلج. لم تكن فقط مجرّد توجيهات أو كلمات جيدة؛ بل كانت سخريّةً وتهكّمًا واستهزاءً، فيقولان له: «أتجيد اللعب أم لا؟ لا تجيد اللعب، إذن لا تأخذ اللوح، واتركه لنا؛ فنحن نجيد اللعب!». «هل أنت جريء؟ إذن عندما تصل إلى منعطف حادّ لا تنتبه؛ بل زد السرعة، أو ألق بنفسك، ولكن قد لا نتمكّن من أن نأتي لنسحبك!».

لعبوا، وتعلّموا، وجرّبوا بدقّة؛ فكلّما لعب الأطفال الثلاثة تحسّن أداؤهم، وصاروا يتزلّجون براحة أكبر، وأيضًا كلّما لعبوا شعروا بالفرح والمرح؛ فمتعة هذا النوع من اللعب تختلف كثيرًا عن متعة اللعب بالألعاب الحالية؛ فالأطفال الثلاثة الآن عندما ينظرون إلى الطرف الآخر وهو يتزلّج، يتحدّثون عن مستواه ويقولون: «يتزلّج بشكلٍ رائعٍ للغاية!».

جذب لوح التزلج أطفال القرية جميعًا، وأثار فضولهم؛ فأتوا لمشاهدتهم وهم يتزلّجون؛ بل جاء الكبار أيضًا. في ذلك الوقت أراد كلٌّ من وانغ وتسون وياتسي أن ينال عرضهم استحسان الجميع، فأدّوا بعض الحركات الرّائعة والمثيرة فوق لوح التزلج، وهذا ما أدهش أطفال القرية، وجعلهم يهتفون لهم ويصيحون. واختلفت حركات الأطفال الثلاثة؛ فكلٌّ منهم له مهاراته الخاصة.

مرض وانغ، ولكن في هذه الأيام كان يتزلّج بحماسةٍ شديدةٍ، وكان لا يرغب في المناوبة مع كلٍّ من تسون وياتسي. قد يكون مصابًا بالحمّى، فكان يشعر بثقلٍ في رأسه، كما لو كان يحمل

حجزًا ثقيلًا فوق رأسه؛ لكنه استيقظ مبكرًا، وبصعوبة تناول بعض الأرز، وأخذ لوح التزلج بين يديه، وذهب إلى الطريق العام.

تساقطت الأمطار، وتغير لون الطريق، فبدا جديدًا، وبدا أعمق، وأكثر إشراقًا، كبقعةٍ من الزيت تجذب الناس، وشعر وانغ أنه إذا استطاع أن يتزلّج عند المنعطف، واستطاع أن يميل بجسده بجرأةٍ أكبر، فذلك سيكون أسرع وأجمل، وسأل وانغ نفسه وهو غاضبٌ قليلًا: «ألا يمكنك أن تتجرأ قليلًا؟ فإذا سقطت لن تموت! حقًا!»، غضب من نفسه قليلًا ثم نبّه نفسه قائلًا: «تقدّم قليلًا!».

عندما مال وانغ بجسده، ووضع قدميه فوق لوح التزلج، وتقدّم إلى الأمام، شعر بأنّ اليوم قد تقلّصت العوائق في الطريق إلى حدٍّ كبيرٍ، والتزلج فيه صارت سرعته أكبر بكثيرٍ، وشعر بالقلق مرّةً أخرى؛ لأنه كلّما اقترب من المنعطف زادت سرعته، فهل سيتمكّن من السّيطرة على لوح التزلج؟ شعر كأنّ أطرافه الأربعة قد صدئت اليوم، فكانت استجابتها سيّئةً للغاية.

وصل إلى المنعطف الأوّل، وحين عبره اتجه مباشرةً نحو المنعطف الثاني، وكان الوقت قصيرًا للغاية بين المنعطفين. كان وانغ يتساءل بينه وبين نفسه: «كيف صار جسدي ثقيلًا هكذا؟»، ولبعض الوقت، شعر أنّه لم يستوعب ذلك المنعطف الذي عبره.

لمع البرق في المنعطف أسفل لوح التزلج، وزادت سرعته بشكلٍ لم يعرفه من قبل، وحينها زاد توتّره بسبب الحمّى، واسودّ كلّ ما يراه، وسُحب لوح التزلج من تحت قدميه كما لو أن أحدًا سحبه بالقوّة؛ فطار من فوق اللوح، وسقط بقوّةٍ بجانب الشجيرات الشائكة على الطريق، وعلى الفور اصطدم لوح التزلج بالمنعطف.

قضى وانغ وقتًا طويلًا وهو يكافح ليخرج من بين الشجيرات الشائكة؛ فقطعت الأشواك ملابسه بعدّة أماكن، واخترق الشّوك يديه ووجهه، وتسبّب له في جروحٍ. عثر وانغ على لوح التزلج، ثمّ احتضنه وعاد به. كان طريق العودة عبارةً عن منحدراتٍ، بالإضافة إلى مرضه؛ لذلك بدا سهلًا أمام كلٍّ من تسون وياتسي، اللّذين يجلسان القرفصاء في مكانٍ عالٍ، كالسّمك الصّدفيّ الذي يزحف ببطءٍ.

تسلّق وانغ المنحدر، ووصل إليهما؛ فمن الممكن أن يتناقش مع تسون أو ياتسي بشأن تبادل هذا اليوم، وكان تسون وياتسي متلهّفين للتزلج، ولا يستطيعان الانتظار، لكنّ وانغ كان يعزّ عليه أن يترك لوح التزلج؛ وتردد في أن يأخذ قسطًا من الرّاحة، لكنه حسم أمره، ثمّ ذهب للتزلج.

رأى كلٌّ من تسون وياتسي أنّ وانغ قد عبر المنعطف هذه المرّة بمنتهى السّهولة، ثم اعترضت

الغابة طريقه في غمضة عين، تخيلا لو عبر وانغ المنعطف الثاني بسهولة أيضًا، فبالتأكيد سيتجه مباشرةً للمنعطف الثالث.

ستةٌ وستون منعطفًا!

اتّفق الأطفال الثلاثة على أنه إذا سقط أحدهم أثناء التزلج، عليه أن يحمل لوح التزلج ويعود به، ثمّ يتزلّج من أوّل المنعطف من جديد، وعلى الرغم من أنّه إذا سقط أحدهم فلن يراه الآخرون، فإنّ الأطفال الثلاثة يثقون أنه مهما فعلها أحدهم لكنهم سيبقون على العهد، وبعد الانتهاء من تزلج الستة والستين منعطفًا، صار ذلك الطريق هو اتجاههم.

دائمًا ما تمـرّ العربات التي تجرّها الخيول أو عربات جمع القمامة المتّجهة إلى القرية من هذا الطريق. واليوم سواءً كان من سيتزلّج هو وانغ، أم تسون، أم ياتسي، فبإمكانه أن يستقلّ العربات التي تجرّها الخيول أو عربات القمامة للعودة إلى نقطة الانطلاق مرّةً أخرى. أمّا الاثنان اللّذان لم يأت دورهما، فبالتأكيد سيجلسان أسفل شجرة القيقب التي تقع في مكانٍ عالٍ؛ فهم أصدقاء.

انتظرا فترةً طويلةً، حتّى عاد وانغ مستقلًا عربةً تجرّها الخيل، وما إن رأى سائقها كلًّا من تسون وياتسي حتى قال لهما: «ساعداني سريعًا، يجب أن تعيدا هذا الطّفل إلى منزله. إنّه مريضٌ، لقد وجدته ملقى على جانب الطريق»؛ فاندفع كلٌّ من تسون وياتسي إلى الأسفل.

كان وانغ يرقد فوق العربة كالموتى، لكنّه كان يحتضن لوح التزلج بقوّةٍ، وأثناء مساعدة تسون وياتسي لـه حتّى يعيداه إلى المنزل، قال وانغ الذي كان شبه غائبٍ عن الوعي بسبب الحمّى التي أصابته وهو يرتعش: «أنا.. أنا انتهيت من تزلّج الستة والستين منعطفًا».

عادت السيارة متوسّطة الحجم مرّةً أخرى، وتوقّفت على جانب الطريق عند مدخل القرية. في ذلك الوقت، كان تسون يحمل لوح التزلج تحت ذراعه ويتّجه من أسفل إلى أعلى، فبعد أن انتهى من تزلّج الستة والستين منعطفًا، استقلّ عربةً لجمع القمامة تدفع باليد ليعود، ولكنّ وجهة تلك العربة كانت تبعد عن القرية بحوالي خمسة أو ستّة كيلومترات؛ فاضطرّ تسون إلى أن يعود هذه المسافة مشيًا على قدميه.

وعندما رأى أطفال المدينة تسون قادمًا وهو يحمل لوح التزلج، كشفت نظراتهم عن الشّكوك والحيرة، وعبّر بعضهم عن الاندهاش، وأظهر بعضهم الآخر ملامح اللّا مبالاة.

كان المشهد على النّحو الآتي: فقد أتت تلك السيارة، واستعدّ أطفال المدينة قليلًا، وبعد أن صاح المعلّم (ما) مناديًا: «اجتمعوا»؛ اصطفّ الجميع، ووقفوا في أماكنهم، وعندما أطلق العيار

الثاني، طارت العشرات من ألواح التزلج إلى الأمام، ثم وضع المعلّم (ما) السّلاح في جيب بنطاله، وصعد هو الآخر على لوح التزلج الخاصّ به، وانطلق يتتبع الأطفال.

تبادل كلٌ من وانغ وتسون وياتسي النظرات، ولكنهم لم يتبادلوا ما بداخلهم، ولم يتكلموا كلمة واحدة، وفي الوقت نفسه خبؤوا أيديهم اليمنى خلفهم، ومدّوا أيديهم اليسرى للأمام؛ فأظهر وانغ وتسون ظهر اليد، لكنّ ياتسي أظهر بطن يده.

«ظهر اليد وبطن اليد»، هو أسلوبٌ يتّبعه الأطفال الثلاثة للاختيار فيما بينهم، وهو أيضًا أسلوبٌ قديمٌ. ضرب كل واحد من الثلاثة كفّ الآخر. تسلّم ياتسي لوح التزلج من تسون، ووضعه على الطريق، ووضع قدمه اليسرى فوق لوح التزلج، وبشراسةٍ تنافسيةٍ ركل الأرض بقدمه اليمنى بضع خطواتٍ على الطريق، ووضع قدمه اليسرى أعلى اللوح، وطار بلوح التزلج بمنتهى السّرعة على الطريق. في ذلك الوقت كان أطفال المدينة قد انتهوا من تزلّج منعطفين، واقتربوا من المنعطف الثالث.

كان ياتسي متزنًا للغاية، ولم يبذل أيّ جهدٍ للحاقٍ بالركب، وتزلّج بأسلوبه الطبيعيّ، وبذل جهدًا أكبر قليلًا من المعتاد، وفي المنعطف العاشر لحق بأطفال المدينة، وعندما مرّ ياتسي بجانب المعلّم (ما) وهو يتزلّج، اندهش المعلّم (ما)، وتقريبًا سقط من فوق لوح التزلج، فأدار ياتسي رأسه ونظر إلى المعلّم (ما) وهو يضحك.

وبعد ذلك، بدأ ياتسي يتجاوز أطفال المدينة واحدًا واحدا، وكان كلّما عبر واحدًا منهم يقول بداخله جملةً واحدةً، هي: «لقد عبرت طفلًا آخر!»، ولم يفعل ياتسي أيّ حركةٍ أو تعبيرٍ بوجهه تجاه الأطفال الذين يسبقهم، كما لو كان يتزلّج منفردًا على هذا الطريق، ولا تربطه أيّ صلةٍ بمن هم بجانبه.

اكتشف أطفال المدينة ياتسي، فاندهشوا كثيرًا، لدرجة أنّ طفلين -من كثرة انشغالهما وتركيزهما على سرعة ياتسي- نسيا أمر تزلّجهما، وانحرفا عن الطريق.

كان ياتسي يتزلّج وهو يهمس بأغنية كانت أستاذة اللّغات قد علّمتها لهم سابقًا، وهي:

أعلى الجدار تفتّحت زهرةٌ حمراء صغيرةٌ،

تحت الجدار سلحفاة صغيرةٌ ذهبت لرؤية الزّهرة،

المسافة ليست قصيرة،

حملت الصّدفة وتسلّقت لأعلى،

الصدفة الصغيرة اختبأت جيدًا،

لا تقلق بشأن الرياح والمطر.

تسلّقت قليلًا، واستراحت قليلًا،

بحثت صعودًا وهبوطًا كالبلهاء،

تسلّقت واستراحت ثلاثة أيّام ونصف،

واستطاعت بذلك أن ترى أعلى الزهرة الحمراء،

العديد من الزهور الحمراء المتفتّحة، ابتسمت لها معًا ورحبت بها.

كان ياتسي يغيّر لحن الأغنية التي علّمتها له المعلمة وفقًا لسرعة تزلّجه؛ فصار الإيقاع الآن سريعًا ومبهجًا وقويًا. في البداية كان يهمس بصوتٍ هادئ، ثم ارتفع صوت غنائه، وفي النهاية تحوّل غناؤه إلى صراخ.

كان أطفال المدينة ينظرون إليه بتعجّب شديد. كان ياتسي هو ثاني شخص انتهى من تزلّج الستة والستين منعطفًا.

في ذلك الوقت، كان لا يزال وانغ وتسون جالسين أسفل شجرة القيقب، ويفكّران بقلقٍ في: هل وصل ياتسي؟ وما ترتيبه؟

أتت عطلة الصيف، وبعد الخريف كان طلّاب المرحلة السادسة -وانغ وتسون وياتسي- سيدرسون في المدرسة الإعداديّة. كانت المدرسة ببلدة تشيو، عند المنعطف الثالث والثلاثين؛ لذلك قرّر الثلاثة ألّا يلعبوا بلوح التزلج في عطلة الصيف؛ بل يجب أن يركزوا تفكيرهم وجهدهم على كسب المال، حتّى يستطيعوا شراء لوحين آخرين من ألواح التزلج، والذّهاب إلى المدرسة معًا فيما بعد.

في ظهر ذلك اليوم، كانت هناك سيّارةٌ متوقّفةٌ على جانب الطريق أمام القرية، ونزل منها المعلّم (ما)، وعندما نزل من السيارة سأل عن منزل ياتسي؛ فقد جاء للبحث عنه.

أجابه طفلٌ قائلًا: «ياتسي ليس بالمنزل، وأنا أعرف أين هو، لقد ذهب مع وانغ وتسون عند الجدول؛ حتّى يصطادوا السّمك».

طلب المعلّم (ما) من ذلك الطّفل أن يدلّه على الطريق، وعندما عثر على ياتسي، كان الأطفال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثلاثة قد اصطادوا سمكةً كبيرةً، ويشعرون بالسعادة.

اندهش المعلّم (ما) عندما رأى تلك السمكة الكبيرة، وصاح قائلًا: «يا لها من سمكةٍ كبيرةٍ!». ونادى المعلّم (ما) على ياتسي ليتكلم معه جانبًا. وظلّ ياتسي يستمع له كالجاهل الأحمق؛ ولكنّه بشكلٍ عامٍّ فهم ما سمعه.

كانت المدرسة التي يعمل بها المعلّم (ما) مدرسةً مميزةً للغاية، ولكنّ ذلك التميز يكمن في أنّ المدرسة بها فريق تزلّجٍ على مستوى عالٍ، وفي تلك الأيّام، كانت المقاطعة تنظّم -ولأوّل مرّةٍ- مسابقة تزلّجٍ للمرحلة الابتدائيّة والإعداديّة؛ فالمدرسة كانت لديها فرصةٌ كبيرةٌ للحصول على المركز الأوّل، لكن ما لم يكن في حسبان الفريق، هو أنّ في هذا الوقت الحرج، سيغادر طفلٌ -وهو لاعبٌ أساسيٌ بالفريق- إلى أمريكا للدّراسة هناك، وكانت والدته في أمريكا منذ وقتٍ طويلٍ؛ لذلك ترغب المدرسة في أن ينتقل ياتسي إلى المدينة من اليوم فصاعدًا، وأن يدرس هناك، ويسكن بالمدرسة، كما أنّ جميع نفقاته الدّراسيّة مجّانيّةٌ.

التفت ياتسي إلى كلٍّ من وانغ وتسون، ثمّ قال: «ولكن، نحن ثلاثةٌ!».

استدار المعلّم (ما)، ونظر إلى كلٍّ من وانغ وتسون ثمّ قال: «ولكنّنا نستطيع أن نضيف اسم ملتحقٍ واحدٍ فقط. اسعَا واحدًا فقط من أجل الفوز».

شعر ياتسي بالإحراج، وتردّد كثيرًا؛ فهو لا يعرف كيف يتّخذ القرار. قال له المعلّم (ما): «هذا القرار غير صعبٍ بالمرّة؛ فأنت تتزلّج بشكلٍ رائعٍ!».

قال ياتسي: «إنّ وانغ وتسون يتزلّجان مثلي تمامًا»؛ فبدت الحيرة على وجه المعلّم (ما)؛ فقال ياتسي: «حقًّا، إنّهما جيّدان في التزلج مثلي»؛ فشعر المعلّم (ما) بالإحراج، وقال: «ولكنّنا فقط نحتاج أن نضمّ شخصًا واحدًا فقط».

مشى ياتسي نحو وانغ وتسون وأخبرهما بما قاله له المعلّم (ما). استمع كلٌّ من وانغ وتسون إلى كلامه، وقفزا من السّعادة، ولكنّ تلك السّعادة لم تدم طويلًا؛ بل طارت على الفور مثل الطّير.

تبادل الأطفال الثلاثة النّظرات؛ فهم لا يعرفون كيفيّة التّعامل مع مثل هذا الخبر الذي جعلهم يشعرون بسعادةٍ بالغةٍ وحماس، كما جعلهم يشعرون بالارتباك والحرج الشّديدين، ودارت قلوب الثلاثة مثل عجلات القيادة التي لا يمكنها التّوقّف.

لم يأتهم المعلّم (ما)، وظلّ واقفًا على جانب الطريق ينتظر قرارهم. جلس الأطفال الثلاثة على الأرض، وضمّوا أرجلهم بأيديهم.

كانت المياه تجري في الجدول الصغير، وفوق الجبل البعيد يوجد طيرٌ يغرّد بصوتٍ جميلٍ، وعلى الرغم من أنّه كان على مسافةٍ بعيدةٍ منهم، فإنّهم كانوا يسمعونه بمنتهى الوضوح، وذلك قد يكون بسبب أنّ العالم من حولهم قد بدا هادئًا للغاية. بدا على الأطفال الثلاثة كما لو كان هناك أشخاصٌ يصيحون بداخلهم، بل يتجادلون أيضًا. جاء المعلّم (ما)؛ ولكنّه لم يتكلّم.

لا أعرف متى تنهّد وانغ بصوتٍ عالٍ ووقف. وعلى الفور وقف أيضًا كلٌّ من تسون وياتسي. صدم كلّ من الثلاثة رأسه برأس الآخر أوّلًا، ثمّ عاد كلٌّ منهم خطوةً للوراء، ووضعوا أيديهم اليمنى خلف ظهورهم، وتبادلوا النظرات، ثمّ فجأةً مدّوا أيديهم اليسرى، فأظهر كلٌّ من تسون وياتسي ظهر اليد، لكنّ وانغ أظهر بطن اليد.

ولكنّ وانغ لم يكن سعيدًا، وهمس بفمه قائلًا جملةً واحدةً: «فلنحاول مرّةً أخرى». ولم يتلقَّ أيّ ردٍّ من تسون وياتسي. لعدّة سنواتٍ لا يعرفون كم عدد المرّات التي اختاروا فيها عن طريق أسلوب «ظهر اليد وبطن اليد»؛ لكنّهم لم يعيدوها في أيّ مرّةٍ منها.

أخبر ياتسي المعلّم (ما) قائلًا: «لقد قرّرنا. هو وانغ»، وأشار بإصبعه إلى وانغ. لكنّ وانغ تراجع خطوةً إلى الخلف.

جاء كلٌّ من تسون وياتسي معًا، وأحضرا وانغ أمام المعلّم (ما)، الذي أومأ برأسه، وبدا عليه التأثر الشديد، ثمّ قال لهم: «أنتم الثلاثة أصدقاء رائعون حقًّا!». لكن بعد وقتٍ قصيرٍ، قال المعلّم (ما): «ولكنّني أعرفك أنت»، وأشار بإصبعه إلى ياتسي، وأردف قائلًا: «أعرف أنّك تتزلّج جيدًا، ولا أعرفك أنت»، وأشار بإصبعه إلى وانغ: «كيف تتزلّج؟».

فقال كلٌّ من تسون وياتسي: «يتزلّج بشكلٍ رائع».

قال المعلّم (ما): «ولكنّني لم أره من قبل». ثمّ قال: «حسنًا، بعد عدّة أيّامٍ، سآتي وأحضر فريق المتزلّجين للتدرّب، وأنت يا وانغ تزلّج وأرني مهاراتك، وسأرى ماذا سيكون ترتيبك في التزلج».

بعدما ذهب المعلّم (ما)، لم تعد لدى الثلاثة أيّ رغبةٍ لصيد السّمك؛ فعاد كلٌّ منهم إلى منزله بمفرده.

وبعد بضعة أيّامٍ، عادت السيارة متوسّطة الحجم، وتوقّفت مرّةً أخرى على جانب الطريق أمام القرية.

مرّت عدّة أيّامٍ ولم يهدأ بال الأطفال الثلاثة. كان كلٌّ من تسون وياتسي مسرورين للغاية من أجل وانغ؛ وذلك لأنّ لديه فرصةً للدّراسة في المدينة، ولم يعد وانغ مضطربًا كالسابق. لقد استعدّ

بمنتهى الإخلاص. سيجعل المعلم (ما) يرى مهاراته في التزلج.

في ذلك اليوم، تجمّع جميع أهل القرية على جانب الطريق. ولا أعرف لماذا ربطوا الحصان الأسود الصغير التابع لعائلة تسون أسفل شجرة القيقب. ووقف وانغ مع أطفال المدينة عند خط البداية.

أُطلق العيار الناريّ؛ فانطلق أطفال المدينة يتزلّجون في التوقيت نفسه، ولكنّ وانغ تجمّد في ذهولٍ، وهنا صاح كلٌّ من تسون وياتسي: «وانغ!». ذُهل وانغ، وانطلق بلوح التزلج، ولم يمرّ وقت كثير حتى لحق بركب الأطفال في الأمام.

انتظر تسون حتى اختفى وانغ بعد أوّل منعطفٍ، ثمّ ركب ظهر الحصان، ومدّ يده وسحب ياتسي خلفه، وانطلق مسرعًا، ولم ينتظر حتى يعتدل ياتسي في مكانه. سحب تسون الزّمام، ومرّةً أخرى ضرب بكعبه بطن الحصان، الذي صهل وانطلق يعدو.

التزلج بالتأكيد أسرع من الحصان، ولكن لا يهمّ؛ فهو يستطيع أن يسلك طريقًا مختصرًا، وأن ينافس فريق المتزلّجين في الوصول إلى المنعطف السادس والستين.

وبعد أن عبر عدّة منعطفاتٍ على ذلك الطريق، سرعان ما انحرف الحصان عن الطريق إلى طريقٍ برّيٍّ مجهولٍ.

كان ذلك اليوم مشمسًا، ومشهد الخريف رائعٌ في كلّ مكانٍ ومتعدّد الألوان. وعلى الطريق المتعرّج، كان هناك عشراتٌ من الأطفال يتزلّجون بألواح التزلج الخاصّة بهم، ويبدو أنّهم يرفرفون كالطيور. كان تسون وياتسي اللّذان يمتطيان الحصان قد وصلا إلى خط النهاية قبل عشر دقائق، فنزلا من على الحصان، وجلسا على جانب الطريق ينتظران.

وفي مكانٍ بعيدٍ، بدا كأنّ السماء العالية تمطر حريرًا أسود، وبعد فترةٍ من الوقت بدا الحرير الأسود كأنّه أكثر سوادًا، وكانت تبدو مجموعةً من النقط الصغيرة كأنها تتحرّك، وتبدو ساكنةً أيضًا، ولكن إذا نظرت إليها بعنايةٍ، سترى أنّها تتحرّك؛ وكلّما يمرّ الوقت تظهر أكبر قليلًا.

قام تسون وياتسي ببطء، واتجها إلى منتصف الطريق: «أيٌّ واحدٍ منهم هو وانغ؟».

- «أوّل شخص».

- «لا يشبهه».

- «يشبهه!».

- «يشبهه قليلًا».

- «إنه هو وانغ!».

وبعدما انتهى من تزلج المنعطف الأخير، اتجه للأسفل؛ فهذا المنعطف هو الأكبر على هذا الطريق.

- «وانغ!».

وضع كلٌ من تسون وياتسي ذراعه على كتف الآخر، وقفزا لأعلى، وانحنى وانغ بجسده للأمام وفتح ذراعيه، كأنه نسرٌ يطير. سبق وانغ الطفل الذي كان بعده بمسافةٍ بعيدةٍ، ونظر إلى تسون وياتسي، واندفع بلوح التزلج نحو خط النهاية، ثمّ قفز فجأةً، وطار من فوق لوح التزلج، وعانق تسون وياتسي بشدةٍ.

استمرّ لوح التزلج في التقدم للأمام سريعًا، واتجه مباشرةً نحو المنحدر، ثمّ سار ببطءٍ حتى توقّف نهائيًا؛ فبكى الأطفال الثلاثة وسالت دموعهم، وأحنوا رؤوسهم معًا.

بدأ تسون وياتسي دراستهما في اليوم التالي لوداع وانغ، وصار لكلّ منهما لوح التزلج الخاص به؛ حيث صار وانغ وحده يمتلك اللوح، وذلك بعد أن اختاروه بأسلوب «ظهر اليد وبطنها».

أمّا لوحا التزلج الآخرين فقد أهدتها لهما مدرسة المعلّم (ما)، وكانت ألواح التزلج ذات علامة تجارية جديدة بنسبة 80%.

الآن، صار الاثنان فقط على الطريق.

لقد نقصوا واحدًا، وهو وانغ؛ فشعرا بأنّ الطريق صار واسعًا وطويلًا.

كانت تفصل بينهم ستة أو سبعة منعطفاتٍ؛ فحمل وانغ حقيبة الكتب على ظهره، وصعد على لوح التزلج، ولحق سريعًا بكلٍّ من تسون وياتسي.

كتبت النسخة المعدلة في سكن العلم الأزرق بجامعة بكين في الخامس عشر من ديسمبر 2013، الساعة التاسعة والنصف مساءً

أمطار شجرة العطر

(1)

كانت أمام منزل أسرة تشويتشين شجرة عطر كبيرة تعرف بـ «شجرة العطر»، عندما ينظر أهل القرية إلى تلك الشجرة الضَخمة، يتعجّبون ويندهشون، ثم يقولون: «لم نر شجرة عطرٍ ضخمةٍ مثل هذه من قبل!». وكان كبار السّنّ يقولون: «إنّ عمر هذه الشجرة هو مئتا عام، وتعاقبت عليها الأجيال عبر أسلاف أسرة تشويتشين جيلًا بعد جيلٍ».

Telegram:@mbooks90

ظلّت عائلة تشويتشين تتكاثر وتنمو، والآن صارت تتكوّن من العديد من الأفراد، لا تستطيع أن تُحصي عددهم بالتحديد؛ فبعضهم ارتحل بعيدًا، بل ذهبوا إلى أماكن على بعد آلاف الأميال، وبعضهم يعيش في أماكن قريبة؛ حيث أسرةٌ في الشرق وأسرةٌ في الغرب. وعلى الرغم من تفرق هذه العائلة في كلّ مكانٍ، فإنّنا نجد دائمًا أسرةً من هذه العائلة تعيش في المكان القديم؛ وذلك بسبب شجرة العطر.

والآن أسرة تشويتشين هي التي تحرس شجرة العطر.

صارت شجرة العطر مشتبكة الجذور، وملتفة الأغصان؛ بفعل العواصف والأمطار لأكثر من مئتي عام، وتقف قويّةً ومتينةً في هذا المكان. جذع الشجرة غليظٌ وكبيرٌ ومتينٌ، وأغصانها كبيرةٌ وملتفّةٌ، تنتشر في الجهات المحيطة بها، وفروعها متداخلةٌ ومنتشرةٌ إلى أسفل أو إلى أعلى، وللوهلة الأولى لا نستطيع تحديد اتجاه كلّ فرعٍ من فروعها، وفي فصل الشتاء تكون أوراقها جافّةً وميّتةً، وتظهر أغصان الشجر وفروعها باللون البني الداكن، وتظهر تحت السماء كعظامٍ حديديّةٍ، وما زال حالها كالسابق، وبحلول فصل الربيع تنمو الأوراق الصغيرة للشجرة في

هدوء، وتكون هشّةً وضعيفةً؛ لكن تنمو تلك الأوراق وتصير أقوى؛ وذلك بسبب الرياح الدافئة التي تهبّ يوميًا، وخلال عدّة أيّام تصير شجرةً متشابكة الغصون وارفة الظلال، وتظلّ الشجرة تنمو وتزدهر أوراقها حتّى تظهر بالشكل الذي اعتاد الناس رؤيته، وبعد انتهاء فصل الصيف وحلول فصل الخريف، تبدأ الشجرة في إنبات الثمار في شهر أغسطس، وتكون النبتة صغيرةً ذهبيّة اللون كثيفةً للغاية، على هيئة مجموعاتٍ صغيرةٍ، ويكون منظرها رائعًا مهيبًا، وتجذب تلك الأزهار التي نبتت على فروع الشجرة انتباه المارّة، فيتوقّفون وينظرون إلى أعلى، ولا يستطيعون التحرك مدّةً طويلةً.

وفي تلك الأيام، ينتشر عطر الثمار الذي لا نظير له، ولا يشمّ هذا العطر أهل القرية فقط؛ بل ينتشر إلى عدّة أماكن أخرى، ومن يشم هذا العطر يقول: «إنّ هذه الرائحة طيّبةٌ كرائحة ثمار شجرة العطر» وإذا نظرت حولك ولم تجد ولو شجرة واحدة من أشجار العطر، فستشعر بالشك والحيرة، وأثناء اللّيل تتأثّر الثمار بالرطوبة تدريجيًا، فتزداد رائحتها قوّةً، وتتدفّق من كلّ جهةٍ تحت نور القمر، وعلى ما يبدو أنّ كلّ ما على الأرض في حالة راحة عميقة، وذلك لأنّهم في حالة سكرٍ بسبب تلك الرائحة التي تسلّلت إلى الأنوف.

إنّ حياة أشجار العطر قصيرة لدرجةٍ تُشعر الجميع بالقليل من الحزن، فيمكن أن تكون بالأمس مشرقةً وجديدةً، لكنّها تُصاب بالتّعب بين عشيّةٍ وضحاها؛ فتضعف الشجرة وتقلّ قوتها، وإذا هبّت عاصفةٌ من الرياح تذبل أوراقها وتتساقط الواحدة تلو الأخرى، كما الحال مع مئات الآلاف من الفراشات الصغيرة. لكنّ هذه الفراشة فقدت قدرتها على الطيران؛ فتترنح حتّى تسقط على الأرض.

في مكانٍ ليس ببعيدٍ يوجد نهرٌ، وعندما تهبّ الرياح تتساقط تلك الأزهار الذهبية فوق مياه النهر، وبعد وقتٍ قصيرٍ تمتلئ مياه النهر بها؛ وعندما يسبح البطّ في النهر تتفرّق الأزهار وتستقرّ على الجانبين، لكن لا يعوم البطّ مدّةً طويلةً، وسرعان ما تتجمّع بشكلٍ متناسقٍ، وتسبح ببطءٍ إلى مكانٍ بعيدٍ، وعند رؤية هذا المشهد يشعر الجميع بالراحة.

يهتم أفراد عائلة تشويتشين بشجرة العطر في تلك الأيام التي تتفتّح فيها أزهارها، فتتفتّح بنسبة 30%، وبنسبة 50%.

ويعتقد أفراد أسرة تشويتشين أنّهم يحرسون شجرة العطر بالنيابة عن تلك العائلة العريقة والمستمرّة عبر التّاريخ، وأيضًا بالنيابة عن أهل القرية. صحيحٌ أنّ هذه الشجرة ملكٌ لهم، لكنّهم لم يروا أنّها مجرّد شجرةٍ تنتمي إلى عائلتهم؛ بل إنّهم فقط مكلّفون بحمايتها بالنيابة عن عائلتهم

وعن أهل القرية.

وفي كلّ سنة يجمع أفراد تلك العائلة أزهار شجرة العطر، ويقسمونها على كلّ أسرّة في القرية، ويحتفظون لمنزلهم بالقليل منها، بل أحيانًا لا يتركون نصيبًا لمنزلهم. وكانت الأسر التي تحصل على الأزهار تصنع منها الكعك أو الشاي أو زيت الملح. وهناك بعض الأسر تصنع منها الوسائد، ويطلقون عليها: الوسائد العطرية.

لم تكن أزهار شجرة العطر من نوعية تلك الأزهار التي تسقط على الأرض بصورة طبيعية، وعلى الرغم من أنّ اسمها شجرة العطر، فإنّ بعض أزهارها الساقطة تكون ذابلة.

تكون أزهار شجرة العطر معلّقة بفروع الشجرة، والأزهار التي تتساقط عندما يحرّك الإنسان الشجرة بقوة هي الأزهار الحية.

وفي شهر أغسطس يكون هناك دائمًا يومٌ مخصّص لهز الشجرة. ويُختار هذا اليوم بعناية فائقة. في ذلك الوقت تتفتّح كلّ أزهار شجرة العطر تمامًا، مثل الأغنية في قمتها، فيمد والد تشويتشين رأسه لأعلى، حتى يتفحص أزهار الشجرة، وعندما يتأكّد ويتفحص الشجرة جيدًا، يدعو عدّة أشخاص ليساعدوه، وبعد أن يتفحصوها قليلًا من الوقت يسألهم والد تشويتشين: «هل يمكن أن نهز الشجرة حتى تسقط أزهارها؟»، فيشير أولئك الأشخاص برؤوسهم ويقولون:

«نعم، يمكن أن نهزها».

لا يُعدّ هز الشجرة مزةً كلّ سنة طقسًا عاديًا في القرية، بل إنّه محفلٌ بمشاعر الطقوس.

تكون أزهار شجرة العطر نضرة في الصباح وقت شروق الشمس، وهي لا تزال محفلةً بالندى الليلي. وفي الصباح الباكر تساعد تشويتشين والديها في فرش عشرات الحصائر النظيفة تحت أغصان الشجرة، ويتجمّع الكبار والصغار من أهل القرية بالتدريج حول الشجرة، ويهز أطفال القرية الأبرياء السذّج الشجرة، أمّا الكبار فيقفون في الدائرة المحيطة بهم، ويشجّعون الأطفال دون توقّفٍ قائلين: «بقوّة، تزوّدوا بالقوّة».

لم يكن للأطفال المشاركين في هز الشجرة الحقّ في أن يدوسوا الحصائر المفروشة على الأرض كما يحلو لهم، بل يجب أن يذهبوا إلى ضفة النهر، ويجلسوا فوق الشّاطئ الحجريّ، ويغسلوا أقدامهم في المياه الصّافية بعناية، فيجب أن تكون أقدامهم نظيفةً حتّى يدوسوا الحصائر، وإن قال طفلٌ لطفلٍ آخر: «إنّ قدميك لم تغسلا جيّدًا»، يرفع الطفل قدميه حتّى يتفحّصها؛ فيكتشف أنّ قدميه ليستا نظيفتين حقًّا، وفي هذه الحالة إمّا أن يغادر الطفل ساحة تحريك الشجرة، وإمّا أن يذهب سريعًا إلى ضفة النهر حتّى يغسل قدميه مرّةً أخرى بعناية.

وعندما يحين الوقت، يتشبّث عددٌ لا نهائيّ من الأيدي الصغيرة بشجرة العطر، ويستندون إلى أجساد بعضهم، ويرفعون مؤخّراتهم عاليًا. وعندما يهتف والد تشويتشين قائلًا: «حرّكوا»؛ يُحرّك الأطفال الشجرة بقوّةٍ وهِمّةٍ، ويرون فروع الشجرة وهي ترتعش، وتتساقط أزهار شجرة العطر مثل قطرات المطر الغزيرة على رؤوس الأطفال الصّغار وأجسادهم تحت الشجرة؛ فيصير لونهم أصفر ذهبيًا، وعندما يهزّ الأطفال أجسادهم، تتساقط الأزهار فوق الحصيرة.

كان الكبار يشجّعون الأطفال حينًا قائلين: «تزوّدوا بالقوّة!»، ويهزّون الشجرة حينًا آخر.

عند هزّ الشجرة هزّةً تلو الأخرى، تتساقط الأزهار بالتدريج، كأنها مقسّمةٌ، ويفصل بين القسم والقسم الذي يليه بضع دقائق، لكن إذا لم تمرّ تلك الدّقائق لن تتساقط الأزهار، حتّى إن حرّكت الشجرة.

وعندما ينظرون، يجدون أنّ الحصائر قد غطّتها الأزهار، بل لا يستطيعون رؤية الحصائر، فلا توجد سوى أرضٍ مليئةٍ بالأزهار. وتتجمّع الأزهار معًا في الأرض الفضاء، وعند النّظر إليها تبدو كأنها تتحرك بهدوءٍ.

يُعدّ هزّ الشجرة في شهر أغسطس مهرجانًا رسميًا ومقدّسًا لهذه القرية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(2)

لا يُستدعى طفلان عند هزّ الشجرة: الولد العفريت ذو الساقين الطويلتين، ووان لينغ.

كان الجزء العلويّ من جسد ذي الساقين الطويلتين قصيرًا، بينما كانت ساقاه طويلتين بشكلٍ غير عاديّ، وترتيبه هو الثاني بين إخوته وأخواته. لم يلتحق ذو الساقين الطويلتين بالمدرسة، وهو يظلّ طوال اليوم يلعب في الخارج، ويراه الآخرون يجري دائمًا، وقلّما يرونه ماشيا، فهو يجري في الحقول، وفي الأراضي غير المستغلّة، وفوق السّدود، وفي أزقة القرية، فقدماه تتحرّكان دون توقّفٍ، ويجري بخفّةٍ ورشاقةٍ كالرياح. في لحظةٍ لا تجد ظلّه، وهذا ما يثير الشّكوك لدى من يرونه، فيتساءلون: «لقد كان يجري أمامنا الآن، كيف اختفى فجأةً؟». وعندما يبدأ الأشخاص في الالتفات حولهم، يجدونه يقف فجأةً بين العشب والشّجيرات، أو يخرج راكضًا من زقاقٍ قديمٍ، أو يظهر من خلف قبرٍ ويتسلّق فوق قبرٍ عالٍ.

دائمًا يضع ذو الساقين الطويلتين الناس في حيرةٍ، حيث يتساءلون: «لم نره يدخل بين تلك الشجيرات، فكيف يخرج فجأةً من بينها؟ هل هو شبح؟». فقد كان على استعدادٍ تامٍّ لأن يخيف الناس. فعندما تتجه إلى الأمام في طريقك، يمدّ وجهه فجأةً عند المنعطف، وإذا كانت هناك مجموعةٌ من الأشخاص يستظلّون تحت شجرة، ينزلق بغتةً من فوقها.

كان ذو الساقين الطويلتين في الأصل يدعى وي هاوران، لكن لم يعد أحدٌ يتذكّر أنّه ما زال يملك ذلك الاسم، فكان الجميع يدعونه: ذو الساقين الطويلتين.

كان ذو الساقين الطويلتين طوال العام لا يستطيع التمييز ما بين الربيع والصيف والخريف والشّتاء، فدائمًا يرتدي قبّعة قشٍّ مكسورةٍ وباليةٍ، وقدماه عاريتان، وعندما يمشي تبدو قدماه مئسختين سوداوين، ويجري في كلّ مكانٍ، ولا يهمّه مطلقًا إذا داست قدماه الطّين أو روث الكلاب. وبطبيعة الحال، لا يمكن أن تدوس قدماه الحصائر التي تُجمع عليها أزهار شجرة العطر.

كانت وان لينغ في عمر تشويتشين نفسه، حيث يبلغ كلاهما ثلاثة عشر عامًا، وكانتا زميلتين في الدّراسة، لكنّ تشويتشين تبتعد كثيرًا عن وان لينغ؛ فكل أبناء القرية يبتعدون عنها. لكنّ السبب وراء ابتعاد الجميع عن وان لينغ يقوله الأطفال بوضوح، وأيضًا لا يقولونه بوضوحٍ، فعندما يبتعد عنها شخصٌ، يبتعد عنها عشرة أشخاصٍ في المقابل، وعندما يبتعد عنها عشرة أشخاصٍ، يبتعد عنها مئة شخصٍ.

إنّ وجه وان لينغ شاحبٌ على مدار العام، وشعرها أصفر قليلًا وخفيفٌ بعض الشّيء. تحني رأسها دائمًا لأسفل عندما تمشي، وباستثناء جدّتها فهي نادرًا ما تتحدث مع الآخرين. فهي تذهب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى المدرسة بمفردها، وتعود إلى المنزل أيضًا بمفردها، ولا تفكّر مطلقًا في اللحاق بزملائها الذين يمشون أمامها حتى تمشي معهم جنبًا إلى جنب، وفي حجرة الدراسة تستمع إلى الدروس في صمت، وتقرأ في صمت، وتؤدي واجباتها المنزلية أيضًا في صمت؛ فتمشي كأنّ ذلك الطريق خاصٌ بها وحدها، وكأنّ تلك المدرسة خاصّةٌ أيضًا بها وحدها.

تحبّ وان لينغ اللعب واللهو مثل باقي الأطفال تمامًا، ولكن كلّ ما تفعله هو أن تلعب بمفردها. وعلى الرغم من أنّ عالمها به شخص واحد، فإنّها تلعب حتى يحمّر وجهها، ولا نرى أثرًا لوجهها الشاحب. ودائمًا تقول إنّها لا تحبّ أن تلعب مع الآخرين، لكنّ هذا ليس صحيحًا. في الحقيقة هي تحبّ أن تلعب مع الآخرين؛ بل يمكن القول إنّها تحبّ ذلك كثيرًا، ففي كثيرٍ من الأحيان تتوقّف في منتصف الطريق عندما تكون في طريقها للعب مع الآخرين، وفي كثيرٍ من الأحيان تجلس بمفردها في مكانٍ ما، إمّا فوق عتبة منزلها، وإمّا تحت الشجرة الموجودة على جانب النهر، وإمّا بجانب المروحة الهوائية في الحقل. تجلس وان لينغ واضعةً يديها تحت ذقنها، ولا تتحرّك حركةً واحدةً. في ذلك الوقت يكون وجهها صغيرًا، كأنّها تسرح بنظرها في مكانٍ بعيد.

تختلف وان لينغ عن ذي الساقين الطويلتين كثيرًا؛ فهي أكثر من يحب النظافة في القرية. وعلى الرغم من شحوب وجهها، فإنّها نظيفةٌ للغاية؛ فهي تغسل ملابسها وتبدّلها يوميًا. فعلى ملابسها دائمًا يمكن رؤية تلك العلامات التي تشير إلى فتح الملابس لتوّها، ودائمًا ما تصنع لها جدّتها أحذية جديدة، فلا يمكن رؤية التراب عليه في أيّ وقتٍ، وفي كلّ مرّةٍ يكون حذاؤها كأنّه جديد، ودائمًا ما تكون أيدي باقي الأطفال قذرةً، أمّا يداها فبيضاوان ونظيفتان طوال العام، كأنّها تغسلهما يوميًا بماء الينابيع الصافية.

من المنطقيّ أن تكون تلك الفتاة النظيفة هي أكثر شخصٍ يُسمح له بالمشاركة في أعمال هزّ الشجرة، لكن مع ذلك يبتعد عنها أهل القرية جميعًا كبارًا وصغارًا، كأنّها شيءٌ مشؤومٌ أو قذرٌ.

تمتلك وان لينغ قريبًا واحدًا، وهي جدّتها، فليس لديها أب؛ فهي تعرف عنه أنّه كان عضوًا في فريق السيرك الذي يتنقّل من مكانٍ لآخر، وبعدما مُنعت عروضه بالقرية بثلاث أيام، رحل والدها سريعًا مثلما تمرّ الرياح، ولم يترك لها سوى براز الحصان والقرد، وبعض الأحذية والجوارب البالية، وترك أيضًا بذرةً، وبدأت تلك البذرة تنمو داخل بطن والدتها، وظلّت تنمو حتى صارت يومًا طفلةً تُسمّى: وان لينغ. ويظن أهل القرية: «أنه كان أوسم رجل في فريق السيرك».

كان وجه وان لينغ شاحبًا؛ بسبب عدم خروجها لرؤية الشمس منذ أن ولدتها والدتها. عندما خرج صوت بكاء وان لينغ وانتشر في القرية، وقف الكثير من أهل القرية في الزقاق يتهامسون

حينًا، ويتلصصون النظر إلى الغرفة التي ولدت بها وان لينغ حينًا آخر. وسواءٌ كان المولود ذكرًا أم أنثى، فقد ظهرت عليهم ملامح عدم المبالاة والاستخاف، بل حتى تعابير الاحتقار. وفي المرّة الأولى التي حملت فيها الجدّة وان لينغ بين ذراعيها، وجلست بها تحت أشعّة الشمس، كانت والدتها قد رحلت قبل ذلك بثلاثة أيامٍ في منتصف اللّيل، ولا أحد يعرف إلى أين رحلت والدة وان لينغ. رحلت والدتها ولم يرها أحدٌ مرة أخرى واختفت تمامًا.

وفي اليوم الذي اختفت فيه والدة وان لينغ، لم تُظهر الجدّة مشاعر القلق والخوف. كان كلّ ما حدث أمرًا طبيعيًا؛ كأنّها نتيجةٌ عرفتها منذ وقتٍ مبكّرٍ وقبلتها، والآن تركيزها الوحيد هو الاهتمام بتلك الفتاة الصغيرة الضعيفة وان لينغ.

لم تُخرج الجدّةُ وان لينغ من المنزل؛ كأنّ هناك شيئًا ما سيضرّها في الخارج، ولكن عندما كبرت وان لينغ، أدركت الجدّة أنّ وان لينغ مثل الطير، وأنّها لن تعيش حياتها مرتاحة البال داخل القفص، وعندما لمست وان لينغ باب المنزل بإصبعها، تجزأت الجدّة فجأةً، وكان مزاجها هادئًا؛ فزيّنتها جيّدًا، ثمّ حملتها بين ذراعيها، ومشت باتّزانٍ خلال الزقاق، حتى وصلت إلى القرية.

كانت الجدّة تحتضن وان لينغ، التي ما زالت لم تتعلّم الكلام، بل تهمهم فقط كالأطفال، وتنظر الفتاة الصغيرة حولها، وكانت عيناها ممتلئتين بنظرات الفضول والحيرة، ومن يراهما يشعر بالحيرة والشك، وبعد أن يهدؤوا قليلًا، يشيرون برؤوسهم للجدّة بأدبٍ. وهناك بعض الأشخاص الآخرين يتّجهون نحو الجدّة، وينظرون إلى وان لينغ التي تحملها الجدّة بين ذراعيها، ويمدحون الطّفلة الصغيرة قائلين: «إنّها جميلةٌ للغاية». بل تحسس بعض الفتيات بأصابعهن وجه وان لينغ، فأحببنها وعشقنها. لا تتكلم الجدّة كلمة واحدة، وتكتفي بابتسامةٍ هادئةٍ، ولا تستطيع أن تمنع نفسها عن وضع قبلةٍ على خدّ وان لينغ، ومثل أيّ جدّةٍ في العالم تحبّ الجدّة حفيدتها حبًا شديدا.

ظلّت وان لينغ تكبر يومًا بعد يومٍ، وبطبيعة الأطفال الحساسة للغاية، شعرت وان لينغ منذ وقتٍ مبكّرٍ أنّ نظرات أهل القرية لها تختلف عن نظراتهم إلى باقي الأطفال، فكانت نظراتهم لها بجانب العين، وكانت تلك النظرات باردةً، بالإضافة إلى بعض النظرات التي تحمل الجفاء والنفور؛ ممّا يجعلها تتجمّد في مكانها. في البداية، تنوي وان لينغ أن تمشي نحو أهل القرية، لكن بعد أن ترى ذلك النوع من النظرات تتوقّف في مكانها. في ذلك الوقت تتجمّد وان لينغ في مكانها، وتنظر حولها، وتبدو كأنها تمشي في أرضٍ خالية كبيرةٍ وقد ضلّت طريقها، ولا تعرف إلى أين يجب أن تذهب، وفي النهاية تدير جسدها، وتتجه في عجالةٍ نحو منزل جدّتها. وعندما بلغت السادسة أو السابعة من عمرها، كانت تقضي معظم يومها بجانب جدّتها، وتذهب حيث

تذهب، وكانت تتمسك بها للغاية، كأنها ستفقدها. وكان أطفال القرية دائمًا يرون صورةً واحدةً، وهي: وان لينغ التي تمسك ملابس جدّتها جيّدًا بيدها الصغيرة، وتلازمها كظلّها.

بلغت وان لينغ سنّ الدراسة، لكنها رفضت الذهاب إلى المدرسة. في بادئ الأمر داعبتها جدّتها؛ محاولةً إقناعها بالذهاب للمدرسة، لكنها وجدت أنّ المداعبة لا تجدي؛ فضربتها على مؤخّرتها ضربتين. لكن عندما ضربتها شعرت الجدّة بالضّيق والحزن، وامتلأت عيناها بالدموع، وعانقتها بشدّة؛ فرفعت وان لينغ رأسها ونظرت إلى عيني جدّتها، وبكت، ثمّ قالت لها: «جدّتي، سوف أذهب إلى المدرسة، سوف أذهب إلى المدرسة». وكانت تبدو مطيعةً للغاية.

في وقت هزّ شجرة العطر في شهر أغسطس، تتذكّر وان لينغ أنّها عندما كانت صغيرة، كانت جدّتها تحتضنها بين ذراعيها، وتقف بها في مكانٍ بعيدٍ عن أهل القرية. كان المشهد مليئًا بالحيويّة، وكانت وان لينغ تشير بإصبعها إلى الشجرة، فيما معناه أن تقترب جدّتها قليلًا من الشجرة؛ حتّى تستطيع أن ترى بوضوح. لكنّ جدّتها كانت تقول لها: «يمكننا الرؤية بوضوح من هنا. هناك يوجد الكثير من الأشخاص سيحجبون عنّا الرّؤية». كبرت وان لينغ قليلًا، وصارت تدرك بعض الأمور، وعندما كانت جدّتها تقودها إلى مكانٍ قريب من أهل القرية لرؤية الأطفال وهم يهزّون الشجرة، لم تعد تطلب وان لينغ من جدّتها أن تقترب من الشجرة.

في ذلك الوقت كانت وان لينغ قد بلغت سنًّا تسمح لها بأن تجرى بحريّةٍ، ولا حاجة لأن توافق جدّتها على طلبها هذا، ويمكن أن تجرى حيثما شاءت، لكنّها كانت تظلّ بجانب جدّتها، تنظر بهدوءٍ إلى مشهد هزّ الشجرة، كأنّ تلك الأرض التي يقفون عليها هي التي يجب عليهم البقاء فيها.

وفي شهر أغسطس من ذلك العام، أخيرًا لم تستطع وان لينغ أن تمنع نفسها عن ذلك الزحام، ونظرت إلى تلك الأزهار التي تتساقط بفعل هزّ الشجرة، وذهبت إلى جدّتها وقالت لها لأوّل مرّة: «أنا أيضًا أريد أن أشارك في هزّ الشجرة!»، ثمّ رفعت رأسها ونظرت إلى جدّتها. لم تمنعها جدّتها. فقط نظرت إليها ثمّ تنهّدت، ومنذ ذلك الحين لم تتكلم وان لينغ أمام جدّتها حول أمر المشاركة في هزّ الشجرة.

لم يرفضها أحدٌ من أهل القرية؛ لأنّها وجدّتها لم يعلنا عن تلك الرّغبة لهم، لكن لم يدعها أحدٌ من أهل القرية، كما لم يقل أيّ شخص لجدّتها: «اجعلي وان لينغ تشارك معنا في هزّ الشجرة»

(3)

وان لينغ الصف الرابع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنّ طقس شهر أغسطس يُشعر الناس بالراحة والسعادة؛ فلم تعد الشمس قاسية، ولم تعد السماء ملبدة بسحب الصيف الثقيلة، وفي الصباح الباكر تطير السماء بخفّةٍ ورشاقة إلى مكانٍ عالٍ، ويبدأ تساقط أوراق بعض الأشجار بسبب بدء موسم الحصاد. تلك الأشجار تكبر فجأةً في فصل الصيف وتتفتّح وتنتعش، وتتفتّح أزهار شجرة العطر في مثل هذا الموسم، وتزدهر في فصلي الربيع والصيف، بينما لا تتفتّح أزهارها كثيرًا في فصل الخريف. كانت رائحة شجرة العطر لا تغطيها أو تزعجها رائحة باقي الأشجار، بل تنتشر في الهواء النقيّ، ومن يشمّها لا يحتاج إلى تمييزها، بل يعرف سريعًا أنّها رائحة شجرة العطر.

في ذلك اليوم، يعرف جميع أطفال القرية تقريبًا أنّه بعد فترةٍ قليلة من شروق الشمس، يجب أن يذهبوا لهزّ الشجرة. وكما هو الحال في السنوات السابقة، في الصباح الباكر، تأخذ تشويتشين ووالداها عشرات الحصائر النظيفة، ويفرشانها تحت شجرة العطر، ويجرى الأطفال بسعادةٍ داخل زقاق القرية.

كانت وان لينغ تعرف أنّ اليوم هو يوم هزّ الشجرة؛ فاستيقظت مبكّرًا، ووقفت عند عتبة المنزل، ونظرت إلى الخارج، وفكّرت عدّة مرّاتٍ في أن تذهب لتجرى مع الأطفال في الزّقاق، لكنّها كانت تتخلّى عن تلك الفكرة سريعًا. ظلّت تنظر إليهم، وتدريجيًا قلّ عدد الأطفال الذين يجرون في الزقاق، لأنّهم ذهبوا إلى شجرة العطر، وظلّت وان لينغ تنظر حتّى صار الزقاق فارغًا وهادئًا، وفي النهاية لم تكبح نفسها عن الجري إلى الزقاق.

في ذلك الوقت، كان عددٌ قليلٌ من الأطفال الذين غسلوا أقدامهم في النهر يقفون فوق الحصيرة المفروشة تحت الشجرة، بينما أغلب الأطفال ما زالوا يغسلون أقدامهم. لم يكن هناك أحدٌ من كبار القرية يراقبهم وهم يغسلون أقدامهم؛ بل كان الأطفال يراقبون بعضهم، فكانوا ينقعون أرجلهم ويغسلونها داخل مياه النهر الصافية التي تتدفّق دون توقّف، وكان بعضهم يحرّك قدمه بنفسه ويتفحصها، فإذا كانت لا تزال متّسخةً، ينزلها داخل مياه النهر مرّةً أخرى، وبعضهم يرفع قدمه ويطلب من طفلٍ آخر أن يساعده في تفحّصها، ويرتدون أحذيتهم ثمّ يجرون إلى الحصائر، فقط عندما يتأكّدون أنّ أقدامهم صارت نظيفةً حقًّا.

عندما وصلت وان لينغ إلى ضفة النهر، كان هناك أربعة أو خمسة أطفالٍ ما زالوا لم ينتهوا من غسل أرجلهم. نزلت وان لينغ درجتين أو ثلاث درجاتٍ من السلّم، ثم عادت مرّةً أخرى، ووقفت تحت شجرةٍ من أشجار الصفصاف. كان الزحام شديدا عند شجرة العطر القريبة منها، وكان هناك عددٌ لا يُحصى من الأطفال يضحكون ويتحدّثون بصوتٍ عالٍ، أمّا الأطفال الذين ما زالوا

يغسلون أرجلهم؛ فكانوا حينًا يغسلونها، وحينًا آخر ينظرون إلى الشجرة؛ كأنهم يخافون من عدم اللّحاق بمن يهزّون الشجرة. أنهى هؤلاء الأطفال غسل أرجلهم بسرعة، ومسحوها سريعًا في أطراف بناطيلهم، ثمّ ارتدوا أحذيتهم وجروا نحو الشجرة. وجميعهم رأوا وان لينغ؛ لكنهم لم يهتموا بها، كأنهم لم يروها.

صارت ضفة النهر خالية من الأشخاص، كما صار هدير تدفّق النهر واضحًا للغاية.

ظلّت وان لينغ تمشي، وفجأةً بدأت تقفز، ثمّ عادت للمشي نحو المياه بمحاذاة درجات السّلّم. عندما وضعت وان لينغ قدميها في المياه ارتعشت في البداية قليلًا؛ فأغمضت عينيها في الحال؛ فكم هو مريحٌ شعور المرء عند إدخال قدميه في المياه! كما أنّ هذه ليست المرّة الأولى التي تدخل فيها وان لينغ قدميها في المياه، فلماذا لم تشعر بهذا الشعور من قبل؟ فتحت وان لينغ عينيها، ونظرت إلى النهر الكبير وإلى المياه المتدفّقة.

كانت قدما وان لينغ متشابكتين داخل المياه، وتفركهما ببعض، وأحيانًا كانت تنسى السبب وراء غسلها لقدميها. بعد أن غسلت قدميها فترةً من الوقت، سندت بيديها على درجات السّلّم، وكان جسدها يميل إلى الخلف بعض الشيء، ثمّ بدأت ترفع قدميها من المياه، وفجأةً بدت قدماها البيضاوان المغسولتان بمياه النهر جميلتين.

حرّكت وان لينغ أصابع قدميها ورديّة اللون، وشعرت أنّ الأصابع العشرة لطيفة. نظرت وان لينغ إلى قدميها المقوّستين الجميلتين، ولا تدري لماذا فجأةً شعرت بالخجل؛ فأنزلتهما سريعًا في المياه، وكانت الأزهار قد بدأت تتساقط تدريجيًا في هدوءٍ إلى أسفل الشجرة.

ظهرت بطّةٌ تبحث عن الطعام وحيدةً. ضربت بجناحيها ثمّ رفعت رأسها، وصاحت عدّة صيحاتٍ؛ كأنّها شعرت بالوحدة فجأةً. ارتعبت وان لينغ ورفعت سريعًا قدميها من المياه، وارتدت حذاءها بعد أن مسحتهما في بنطلونها، وجرت حتّى وصلت إلى شجرة العطر.

عندما ظهرت وان لينغ عند الشجرة، كان جميع الأطفال تقريبًا يتمسكون بجذع الشجرة، وكان بعض الأطفال -ممّن يشعرون بأنّ موقعهم ليس مريحًا، وقدرتهم غير كافيةٍ على هزّ الشجرة- يعدّلون من موقعهم أو حالتهم.

إنّ ظهور وان لينغ أصاب الجميع بالذهول والدهشة، وبدأ الأطفال يتركون الشجرة، واستقام جميع الأطفال من وضعهم المنحني، واتجهت جميع الأنظار نحو وان لينغ. كانت تلك النظرات نظرات دهشةٍ وشكٍّ وحيرة، وبعد فترةٍ قصيرةٍ من الوقت بدأت جفون عيون الجميع تتدلّى، تلك التي كانت مفتوحةً على آخرها، وبعد ذلك تركوا النظر إلى وجه وان لينغ وجسدها، وذهبوا

ببصرهم إلى مكانٍ آخر.

من بين جموع الناس كانت وان لينغ تبحث عن عيني أحدهم، وهي عينا زميلتها تشويتشين.

إنّ هذه الشجرة تابعةٌ لأسرة تشويتشين، ومالكها هي تشويتشين. تحمل وان لينغ الأمل لهاتين العينين.

وعندما نظر جميع الأطفال إلى مكانٍ آخر، كانت تشويتشين فقط هي مَن تتبادل النظرات مع وان لينغ. إنّ نظرات تشويتشين إلى وان لينغ لم تحمل معنى الرفض الواضح؛ لكنّها كانت تحمل فقط الشعور بالدهشة والشك والحيرة، وبعض الشعور بالشفقة.

- «إنّ والدتها قليلة الحياء!»

في تلك اللحظة، رنّت تلك الجملة في أذن العديد من الأطفال، ورنّت أيضًا في أذن تشويتشين. هذه الجملة لم يقلها والد تشويتشين، وأيضًا لم تقلها والدتها؛ لكنّها سمعت هذه الجملة من كلام عدّة فتيات. لم تسمع وان لينغ هذه الجملة مرّةً واحدةً فقط حتى الآن، وتدريجيًا أنزلت تشويتشين نظرها عن وان لينغ، وأدارت وجهها نحو مكانٍ آخر.

صاح أحد الكبار قائلًا: «هزّوا الشجرة!»؛ فتبعه آخرون قائلين: «هزّوا الشجرة!»؛ فوضع الأطفال أيديهم مرّةً أخرى على جذع الشجرة، ودفنت تشويتشين جسدها في مكانٍ عميقٍ بين حشود الناس.

خلعت وان لينغ حذاءها، ووضعت قدميها بخفّةٍ فوق الأرض، ثمّ وضعت قدمها اليمنى بخجلٍ أوّلًا فوق الحصيرة. عمّ الهدوء في المكان، لدرجةٍ تمكّن من سماع صوت الأزهار التي تسقط من الشجرة، وعندما أوشكت وان لينغ على وضع قدمها اليسرى فوق الحصيرة، اضطرب الجميع فجأةً، وفي الحال أصدروا أصواتًا تدلّ على الذهول والدهشة.

لا يدري أحد من أيّ مكان ظهر ذو الساقين الطويلتين، ووضع قدميه المحمّلتين بالطّين فوق الحصيرة؛ فصاح الكبار قائلين: «اخرج، اخرج!».

ظلّ الولد العفريت ذو الساقين الطويلتين واقفًا لا يتحرّك، وهو يبتسم ابتسامةً وقحةً، وكانت هيئته تعبّر عن أنّه سيواصل التقدم إلى الأمام.

خرجت تشويتشين من بين أجساد الناس، ونظرت إلى المشهد أمامها، ثمّ أخرجت كلمةً من بين أسنانها قائلةً: «قذرًا». وعلى الفور خرجت من بين الحشود، ثمّ اندفعت نحو الولد ذي الساقين الطويلتين واصطدمت به. ظلّ ذو الساقين الطويلتين يهتزّ نتيجة الاصطدام، وبعد أن

استعاد توازنه، اتجه مرّةً أخرى نحو الحصيرة، لكنّ تشويتشين وقفت أمامه وعرقلته.

وسرعان ما أدار عدّة أطفال آخرين أجسادهم ووقفوا مع تشويتشين، وساعدوها في طرد ذي الساقين الطويلتين وإبعاده؛ فجرى في لمح البصر دون أن يترك أثرًا.

كان على الحصيرة خمسة أو ستّة آثار أقدامٍ بها طينٌ؛ بسبب قدمي ذي الساقين الطويلتين، وسقطت أزهارٌ من شجرة العطر فوقها؛ فالتصق بها الطّين، وهذا جعل الجميع يشعرون وكأنّها فراشاتٌ صغيرةٌ تريد أن تطير، لكنّها لا تطير، وسريعًا أزال والد تشويتشين الحصيرة المتّسخة، واستبدل أخرى نظيفةً بها، ولم يعرف أحد الوقت الذي اختفت فيه وان لينغ.

(4)

أمسكت وان لينغ في يدها فردة حذاء، وجرت نحو البراري خارج القرية، وفي طريقها كان ينتشر الطوب المكسور والبلاط والتربة الصلبة في كل مكانٍ، وجُرحت قدماها؛ لكنّها بدت كما لو كانت لا تعرف الألم، فلم تنظر إلى الطريق، ولم تتوقّف لتنظر إلى قدمها المجروحة.

تنتشر الأشواك في كلّ مكانٍ في البراري، فكانت وان لينغ تضع قدميها عليها دون أن تحسب حسابًا لأيّ شيءٍ؛ لكنّها أخيرًا توقّفت عن الجري عندما شعرت بألمٍ حادٍّ، فجلست على جذع شجرةٍ، ورفعت قدمها اليسرى أوّلًا لتتفحّصها؛ فرأتها غارقة في الدماء، ثمّ رفعت قدمها اليمنى، ووجدتها غارقةً في الدماء أيضًا؛ فشدّت ورقة نباتٍ بسهولةٍ، وبدأت تمسح الدماء من قدميها بخفّةٍ، لكن بعد أن مسحتها بقليل، سال الدم ببطءٍ مرّةً أخرى. كان باطنا قدميها مليئين بالأشواك، فكزّت على أسنانها، وأزالت الأشواك واحدةً واحدة بواسطة أظفارها. لم تبك وان لينغ، وشعرت أنّ الألم هو ما تحتاجه.

بعد أن ارتدت وان لينغ حذاءها، اتجهت نحو شجرةٍ تبعد مئات الأمتار. كانت الشجرة التي اتجهت نحوها هي شجرة صفصاف اصفرّت أوراقها، وتنتظر رياح الخريف القويّة حتّى تجرفها؛ فجلست تحتها. كانت الأرض التي وصلت إليها قطعة أرضٍ فارغة كبيرةٍ، تغطّيها الأعشاب الكثيفة مع بعض النباتات الغريبة، وبها أيضًا بعض المقابر العالية والمنخفضة، شرقًا وغربًا بين الأعشاب الكثيفة الملتفة. بدت هذه المقابر أيضًا كأعشابٍ برّيّةٍ، فعند النظر إليها لا تبدو كالمقابر مطلقًا؛ لكنّها تبدو كتلالٍ في وسط البراري، وكان هناك أيضًا بعض الطيور التي لا تعرف اسمها، تطير بين الشجيرات القصيرة ذهابًا وإيابًا، وصوت تغريدها كان مملا وغريبًا.

تحبّ وان لينغ الجلوس تحت أشجار الصفصاف، كي ترى تلك البراري وتشمّ رائحتها، وتسمع أصواتها. كان صوت الأطفال يأتي من مكانٍ بعيدٍ، فتخيّلت المشهد في ذلك المكان، حيث تهتزّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شجرة العطر، وتتساقط تباعًا أزهارها ذهبية اللون. وقفت ورفعت رأسها ونظرت إلى أعلى الشجرة، ثمّ أمسكت بجذعها، ومال جسدها، وبدأت تهزّها. كانت شجرة الصفصاف ترتعش قليلًا، وتساقطت منها الأوراق؛ فرفعت رأسها مرّةً أخرى، ونظرت إلى أعلى الشجرة، وبدأت تهزّها من جديدٍ بقوّةٍ وهفةٍ أعلى، وهذه المرّة تساقط منها المزيد من أوراق الشجر، لكنّها ما زالت قليلة. شعرت بقليلٍ من اليأس؛ فأمسكت بجذع الشجرة، ثمّ أحنت رأسها وظلّت تلهث.

وبعد فترةٍ من الوقت، أرخت يديها، وتراجعت عشر خطواتٍ للخلف، وبعد ذلك شجّعت نفسها، ثمّ اندفعت فجأةً نحو شجرة الصفصاف وضربتها بكتفها، وفي هذه المرّة اهتزّت شجرة الصفصاف اهتزازًا واضحًا قليلًا، وتساقط منها عددٌ لا يُحصى من الأوراق اليابسة الذّابلة أمامها تباعًا، وكان شكلها رائعًا. انتظرت وان لينغ حتّى استقرّت الأوراق المتساقطة، ثمّ عادت مرّةً أخرى إلى الخلف، وهذه المرّة تراجعت حتّى مكانٍ أبعد من المرّة السابقة، ثمّ تنفّست عاليًا، واندفعت مرّةً أخرى حتّى اصطدمت بشجرة الصفصاف، فصدر صوت انفجارٍ عند الاصطدام، وتساقطت المزيد من الأوراق.

شعرت بألمٍ في كتفها نتيجة الاصطدام؛ فدعكت كتفها سريعًا بيديها وهي تبكي، وأثناء بكائها تحوّلت تلك الأوراق المتساقطة التي كانت قليلة في الأصل إلى أوراقٍ كبيرةٍ وغامضة. وفي النهاية جلست فوق الأرض المليئة بالأوراق المتساقطة بعد أن ضعفت قوتها، وفقدت القدرة على هزّ الشجرة والاصطدام بها، وتغيّر شكل أعلى الشجرة الذي سقط منه نصف أوراقه وصار شفّافًا، وتغلغلت نظراتها داخل أغصان الشجرة، واستطاعت رؤية سماء الخريف. إنّ الاستلقاء فوق الأرض والنظر إلى السماء يعطي الإنسان شعورًا مميزًا للغاية؛ فنسيت وان لينغ شجرة العطر لفترةٍ من الوقت، وغرقت في متعة مشاهدة السماء والغيوم.

مشت جدّتها نحوها دون مناداتها، ودون أن تنطق بكلمة. جاءت إليها بهدوء، تمشي ببطءٍ؛ لأنّها عجوز. صارت جدّتها عجوزًا سريعًا، كأنّها تصير عجوزًا كلّما تراها يوميًا. كانت قصيرة القامة، والآن صارت أقصر، وعندما تعبر بعض الشجيرات والأعشاب البرّيّة الطويلة، لا يمكن رؤية سوى شعرها الرّماديّ. سمعت وان لينغ صوت خشخشة قدمي جدّتها، وهي تمشي فوق الأعشاب البرّيّة؛ فجلست ثمّ وقفت في الحال. وعندما كانت تنظر إلى جدّتها وهي قادمة نحوها، رأت انحناء الجدّة على محصولٍ لأحدهم انتهى من حصده حتّى تجمع سنابل القمح؛ فارتفع القمر كاملًا إلى السماء وهبط قبل العودة إلى المنزل، ويبدو أنّ تلك القامة المنحنية لن تستقيم مرّةً أخرى أبدًا.

الشّتاء طويلٌ جدًا، وانتهت فروع الشجر التي جُهّزت للحرق كوقود للتّدفئة، ودخلت الجدّة

إلى عاصفةٍ ثلجيةٍ، فقد ذهبت إلى البرّيّة حتى تبحث عن فروع الشجر اليابسة والجافّة، وبعد وقتٍ طويلٍ عادت حاملةً على ظهرها حزمةً كبيرةً من فروع الشجر، وعند النظر إليها لا يمكن رؤيتها، بل يمكن رؤية تلك الحزمة التي تشبه الجبل الصغير فقط، وعند الاستيقاظ في منتصف اللّيل، تكتشف أنّ الجدّة لم تنم؛ فهي تصلح حذاء وان لينغ، أو تخيط لها الملابس الجديدة.

وقفت الجدّة بين الأعشاب البرّيّة، ونظرت إلى وان لينغ؛ فجرت نحو جدّتها سريعًا. لم تسند وان لينغ جدّتها حتى تعود إلى المنزل، كما أنّ هيئة جدّتها لم تكن تأمرها بالعودة إلى المنزل؛ كأنّهما تعوّدا على اللّقاء أسفل شجرة الصفصاف؛ فأمسكا بأيدي بعضهما، ووصلا إلى أسفل الشجرة. أسندت وان لينغ جدّتها بيديها، وبعد أن ساعدتها على الجلوس أسفل الشجرة، جلست بجانبها. هذا مكانٌ يقصده عددٌ قليلٌ من الناس؛ فتحب وان لينغ وجدّتها البقاء فيه.

عندما رأت الجدّة الأوراق المتساقطة التي تملأ الأرض، بدا كما لو كانت تعرف كيف سقطت تلك الأوراق؛ فمدّت ذراعيها واحتضنت وان لينغ في خفّةٍ، ووضعت وان لينغ وجهها على ساق جدّتها المنحنية. وضعت الجدّة يدها الخشنة على شعر وان لينغ، وبدأت تمشّطه وتداعبه ببطءٍ. انحنى وجه وان لينغ قليلًا، ومن مسافةٍ قريبةٍ استطاعت رؤية وجه جدّتها الذي تملؤه التّجاعيد؛ فرفعت يدها ببطءٍ، وأخذت تداعب وجه جدّتها بلطفٍ. كانت تعرف أنّ هذا الوجه صار عجوزًا وضعيفًا من أجلها. تفكّر الجدّة منذ وقتٍ طويلٍ أنّها تعيش ليس من أجل الآخرين، لكن من أجل أن تجعل وان لينغ تمشي أمام الناس بكرامتها.

(5)

إذا كانت وان لينغ ترغب قبل ذلك في الانضمام إلى الأطفال الآخرين، فإنّها الآن لا تفكّر في ذلك. كانت تريد بشدّةٍ الانضمام إلى الأطفال، وفتحت ذراعيها عدّة مرّاتٍ، وجرت نحو مجموعةٍ من الأطفال، مثل طائرٍ ضلّ عن سرب الطيور، وبعد فترة وجد سربه؛ لكنّها تتوقّف قبل أن تصل إليهم بعشرات الأمتار، وبعد ذلك تبقى واقفةً في مكانها مرتبكةً حائرةً، وفي النهاية تدير جسدها وتغادر.

لم تسمع وان لينغ من قبل طفلًا يقول لها كلمةً لا تروق لها، كما لا يوجد أيّ طفلٍ يفعل تصرّفًا يدلّ على كراهيتها، ومع ذلك يبدو أنّ الهواء دائمًا به احتقار بارد وخفي للتهرّب منها. بل كانت وان لينغ تشعر أنّ هناك عدّة أطفالٍ يريدون القدوم نحوها واللعب معها؛ لكنّها لا تعرف لماذا يمشون نحوها، ثمّ يتوقّفون فجأةً، فتتلفّت حولها ولا تجد أحدًا، وفي ذلك الوقت تتردّد قليلًا ثمّ تمشي بعيدًا، وكانت تشويتشين من بين أولئك الأطفال.

لم تكن تشويتشين تكره وان لينغ، فما سبب ابتعادها عنها؟ نشأت وان لينغ وهي فتاة رقيقة، وجميلة، ونظيفة، ومتواضعة مع الآخرين، وحسنة المعشر، وكانت نتائجها الدراسية جيدة للغاية؛ لكنها لم تكن راضية عن نفسها. كانت تشويتشين لا تستطيع منع نفسها من النظر إلى وان لينغ، حتى عندما كان يلصق الولد ذو الساقين الطويلتين الطين على جسد وان لينغ، كانت تشويتشين تضربه ضربًا شديدا؛ لكن في النهاية كانت تشويتشين تقف في مكانٍ بعيد عن وان لينغ ولا تأتي نحوها.

حتى إن وان لينغ توددت إلى هؤلاء الأطفال وكأنها تقول لهم: «عليكم فقط أن تظهروا استعدادكم للعب معي، وأنا سأفعل أيّ شيء تريدونه». لكنّ الشجاهل صلب وأبدي في كلّ مكانٍ، فصار أكثر الأماكن التي تحبّ الذهاب إليها الآن هي تلك البراري، حيث تقفز فوق الأعشاب البرّيّة، أو تجلس أسفل شجرة الصفصاف، ويمكن أن تظلّ فترةً طويلةً تنظر إلى الأرنب البرّيّ رماديّ اللون، الذي يختبئ بين الأعشاب البرّيّة ويمشي فوقها ويقفز أيضًا. وبينما كانت تنظر إلى المكان، فجأةً رأت عشا صغيرًا مختفيا بين الأشجار الكثيفة الملتفة، أعلى فرع شجرةٍ. كان العش فارغًا، فظلّت وان لينغ تفكّر في كيفيّة بناء الطائرين لهذا العشّ، وكيف وضعت أنثى الطائر بيضها، وكيف تغذّى الطيور الصغيرة حتى تكبر، وفي النهاية تترك العش وتطير إلى السماء، وقلّما نرى اليعسوب الأسود في الأماكن التي يكثر فيها الناس، وهو اليعسوب الشيطاني. يظهر ذلك اليعسوب في الأماكن الخالية، أو الأماكن التي لا ترى الشمس، وتمتلئ تلك البراري من شرقها إلى غربها بالمقابر الطويلة والقصيرة، وعندما كانت وان لينغ تنظر إلى تلك البراري من مكانٍ بعيد في ليالي الصيف، كانت ترى لهيبًا أزرق يتطاير بين المقابر التي تقع في البراري، وأخبرتها جدّتها بأنّ هذه النار هي نارٌ شيطانيةٌ. يطير اليعسوب الشيطانيّ الخفيّ في صمتٍ، وتتذكّر وان لينغ تلك النّار الشيطانيّة، كما تتذكّر الكثير من الأساطير المرعبة المتعلّقة بتلك البراري؛ فترتعش وتحيط جسدها بيديها، وتدير رأسها، وتنظر إلى قريةٍ بعيدةٍ؛ لكن في تلك اللحظة تشعر أيضًا بأنّ المشي والقفز في تلك البراري شيءٌ مثيرٌ للغاية، وهي تحبّ ذلك الشعور؛ بل لا تهتم بالتفكير في تلك الأمور المرعبة. وفي ظلّ خوفها واضطرابها، تُبعد عن ذهنها أنّها وحيدة.

في ذلك الوقت يتجمّع الأطفال في مجموعاتٍ من ثلاثةٍ وخمسةٍ ويلعبون في مكانٍ آخر، وتوجد في البراري العديد من الأزهار البرّيّة الجميلة، وفي كلّ مرّةٍ تغادر فيها وان لينغ البراري كانت تقطف حفنةً منها وتعود إلى المنزل، فتبحث لها جدّتها عن جرّةٍ عميقةٍ، وتوفّر لها المياه العذبة؛ حتى تساعدها على العناية بتلك الأزهار، وبهذا تمتلك وان لينغ وجدّتها جزءًا من البراري، وهذا ما يشعرهما بالرضا.

في يوم الأحد، كانت وان لينغ قد جمعت حفنةً من الأزهار البرية الملونة، وعندما كانت تتجه إلى المنزل، ظهرت تشويتشين في مكانٍ بعيدٍ عند حافة البراري، وتنظر ناحية وان لينغ، التي تمسك بتلك الأزهار، وتقف أسفل شجرة الصفصاف، وتنظر هي أيضا إلى تشويتشين. كانت البراري هادئةً جدًا، عدا بعض طيور مجهولة الأسماء تختبئ داخل الشجيرات، وتغرّد بين الحين والآخر.

كانت الفتاتان تتبادلان النظرات، التي تلتقي وتصطدم أيضًا، وأخيرًا دخلت تشويتشين إلى البراري، وكان واضحًا أنها لم تدخل إلى البراري بسبب وان لينغ. لم تتجه تشويتشين مباشرةً نحو وان لينغ؛ لكنها كانت تجلس القرفصاء بين الحين والآخر لتجمع الأزهار البرّيّة. فكّرت وان لينغ في أن ترفع حفنة الأزهار لتدعو تشويتشين؛ لكنها تراجعت، وظلت فقط تردد في نفسها قائلة: «تعالي، تعالي، سوف أهديك هذه الحفنة من الأزهار». وظلّت تشويتشين تقترب من وان لينغ أكثر فأكثر.

كانت الفتاتان جميلتين، وجمال كلٍّ منهما يختلف عن الأخرى. كانت تشويتشين أسمن وأقوى من وان لينغ قليلًا، ووجهها دائمًا أحمر اللون، وعيناها سوداوين لكنهما لامعتان. وبدأت الفتاتان تتبادلان النظرات. كانت المسافة بينهما تُقدّر بحوالي اثني عشر أو ثلاثة عشر مترًا، ولكن يبدو أنه منذ تلك اللحظة لا يمكن تقليل تلك المسافة. وفي تلك اللحظة خرج ديك برّيّ بزّاق من بين الشجيرات وطار إلى السماء؛ فصاحت الفتاتان في الوقت نفسه تقريبًا قائلتين: «ديك برّيّ!». طار الديك البري أربعة عشر أو خمسة عشر مترًا فقط، وسقط مزّةً أخرى على الأرض، وعندما سقط على الأرض، سقطت من جسده ريشةٌ طويلةٌ.

كانت الريشة جميلةً حقًّا. ظلّت تتقلّب في الهواء وتطير، ثمّ هبطت ببطءٍ على الأرض؛ فجرت الفتاتان في الوقت نفسه نحوها. كانت وان لينغ أقرب إليها، فما إن سقطت حتى التقطتها، ووصلت تشويتشين أيضًا مسرعةً، فرفعتها وان لينغ أمام عين تشويتشين، وكانت الفتاتان تستمتعان بتلك الريشة وهما تتنفّسان طويلا. وبعد فترةٍ قصيرةٍ من الوقت، تحوّلت الأنظار من الريشة، وبدأت كلٌّ فتاة تنظر إلى وجه الأخرى، وكانت هذه المرّة الأولى التي ينظران فيها إلى بعضهما من هذه المسافة القريبة، وكان وجهاهما كالسابق؛ لكنهما شعرتا بأنّهما وجهان جديدان.

خطر ببال كل فتاة منهما الثناء على وجه الأخرى، لكنهما لم تتكلما كلمة واحدة، وظلّتا تنظران في صمتٍ، حتى شعرتا بالإحراج قليلًا، فذهبتا بنظراتهما نحو مكانٍ آخر، وعندما نظرت تشويتشين مزّةً أخرى نحو وان لينغ، لم تنظر فقط إلى تلك الريشة، لكنها كانت تنظر أيضًا إلى

حفنة الأزهار، كأنها سمعت صوت وان لينغ يقول لها: «إنها لك!». كان الوقت مساءً، والدفء والسلام والهدوء يعم المكان.

وفجأةً صدر صياح طفل من القرية البعيدة ينادي: «تشويتشين، تشويتشين»، ثم تبعه صوت أطفال كثيرين يصيحون: «تشويتشن، أين أنت؟! نحن في انتظارك!». كانت تلك الأصوات في الأصل تتجه نحو مكانٍ آخر، ولكنها سرعان ما اتجهت نحو البراري، فكانوا يصرخون: «تشويتشين»؛ فأدارت تشويتشين وجهها نحو القرية. كان صوت صياح الأطفال يعلو أكثر فأكثر، بشكل أكثر إلحاحًا، بالإضافة إلى أنّ صياحهم كان يدلّ على فقدانهم الصَبر، وفجأةً توقّفوا عن الصياح.

نظرت تشويتشين نحو القرية، فرأت سبعة أو ثمانية أطفالٍ غير واضحين، يقفون أسفل شجرةٍ كبيرةٍ، ويبدو أنّهم ينظرون نحو البراري. تردّدت تشويتشين قليلًا، ثمّ أدارت جسدها وجرت نحو القرية. ظلّت الأزهار والريشة عالقة في الهواء للحظةٍ، ثمّ سقطوا معًا فوق الأعشاب البرّيّة الكثيفة.

(6)

كانت البراري موحشةً وباردةً للغاية، وظلّت وان لينغ تلعب، ثمّ تتوقّف فجأةً وتنظر حولها. كان الطقس دافئًا، لكنّ وان لينغ كانت تشعر أحيانًا ببرودةٍ غير مفهومةٍ، فتجلس أسفل شجرة الصفصاف وهي تنكمش من البرودة وترتعش. في تلك اللحظة يبدو جسد وان لينغ صغيرًا للغاية، ويتبقّى منها جزءٌ قليلٌ، وبعد ذلك لم تعد ترغب في الذهاب إلى البراري.

ولكنّها رأت مشهدًا في البراري جعلها تغرم بها. ففي ذلك اليوم جاءت وان لينغ إلى البراري في تمام الساعة الرابعة بعد الظّهر، ورأت حريقًا، ولا تعرف من الذي أحرق الورق فوق القبر، واعتقد أنّ النيران قد انطفأت، لكن بعد رحيله اشتعلت النيران أسفل الرماد مرّةً أخرى، وامتدّت إلى المناطق المحيطة، وأحرقت الأعشاب البرّيّة. كانت المساحة التي امتدت إليها النيران كبيرةً جدًا، وقويّةً أيضًا، كما أصدرت الأعشاب التي أُحرقت أصوات فرقعاتٍ، تمامًا مثل الألعاب الناريّة في الأعياد، وهبّت موجةٌ حارّةٌ، فشعرت وان لينغ فجأةً براحةٍ شديدةٍ وبالحماس والإثارة.

ظلّت النيران تتصاعد، مثل عددٍ لا يحصى من الأشخاص ذهبيّي اللون، الذين يرقصون في فرحةٍ وسعادةٍ، وكانت النيران مليئةً بالحيويّة والنشاط، فلم تستطع وان لينغ منع نفسها من التصفيق، كما بدأت ترقص وتتمايل بجسدها مع تمايل ألسنة اللهب، وظلّ الحريق يتمدّد

وينتشر. كانت خائفةً قليلًا؛ بل يمكن القول إنها كانت خائفةً للغاية؛ لكنها تحب هذا النوع من الخوف. صارت وان لينغ بهذا العمر لكنها لم تشعر بذلك التأثر والحماس من قبل، وشعرت بالدوار بسببهما، بالإضافة إلى رقصها وتأرجحها مع النيران، وبعد ذلك بدأت ترقص وتتمايل بشكلٍ مبالغٍ فيه. كانت تشبه المجانين كثيرًا، وبدأت تغني قائلةً: «يا يا»، وظلّت تغني حتى تحوّل غناؤها إلى صراخٍ؛ فمزّق صوت صرختها هدوء البراري، كما مزّق السماء الباقية على حالها دون تغيّر.

بدأت النيران تتصاعد أكثر، وفي النهاية فكّرت وان لينغ بهدوءٍ في سؤالٍ ما، وهو: هل إذا استمرّت تلك النيران في التصاعد يمكن أن تحرق العالم أجمع؟ وأدارت جسدها وذهبت، وفكّرت في أن تندفع نحو القرية وتصرخ قائلةً: «ساعدوني على إطفاء الحريق!». لكنها لم تصرخ، بل التقطت فرع شجرةٍ من الأرض، وفجأةً بدأت تضرب ألسنة اللهب بقوّةٍ وعنفٍ؛ فانطفأت النيران التي ضربتها وان لينغ، وطمأنها هذا؛ بل صارت أكثر سعادةً وهي تضرب النيران، وأثناء ضربها للنيران، تطاير شرارٌ بحجم البعوض، وظلّت تهتف قائلةً: «يا يا يا».

هدأت النيران تدريجيًا بسبب ضربات وان لينغ العنيفة والمكثّفة، وبعد ذلك انطفأت النيران. وتبقّى بالأرض بعض الرماد المحترق، وامتلأ الهواء برائحة الدخان. بعد أن ألقت وان لينغ فرع الشجرة من يدها. شعرت بألمٍ في يدها، ففتحتها لترى ما بها، واكتشفت تكوّن بعض الفقّاعات بيدها، نتيجة احتكاكها بفرع الشجرة، ومنذ ذلك الحين وهي تحب النيران، ولم تعد تشبه الفتيات.

دائمًا ما توجد علبة كبريتٍ مخبأة داخل جيب وان لينغ، فأحيانًا كانت تذهب إلى البراري، وتشعل النيران، ثمّ تطفئها، وكان هناك عددٌ كثير من أهل القرية يرون هذا المشهد، لكنهم يظلّون يشاهدونه من مكانٍ بعيدٍ في قلقٍ، ويستعدون لإطفاء النيران في أيّ وقتٍ، لكن في كلّ مرّةٍ يرون وان لينغ وهي تطفئ النيران بمفردها؛ فيقولون: «هذه الفتاة الصغيرة غريبة الأطوار»، ثمّ يهزون رؤوسهم ويغادرون.

وفي مساء ذلك اليوم، كانت وان لينغ تجلس في هدوءٍ أسفل شجرة الصفصاف، ولكن عندما أوشكت على مغادرة شجرة الصفصاف والعودة إلى المنزل اشتعلت بداخلها رغبة اللعب بالنيران، ولم تستطع كبح تلك الرّغبة؛ لكنّ الوضع هذه المرّة يختلف تمامًا عن المرّة السابقة؛ فالسماء لم تمطر قطرة مطرٍ واحدةٍ منذ شهرين، والأرض جافّةٌ، والأعشاب البرّيّة ذبلت أيضًا، بالإضافة إلى الرياح القويّة، ففي لحظةٍ صارت النيران خارج السيطرة، وامتدت إلى جميع الجهات بسرعةٍ مروعة، وأظلمت السماء، فأمكن رؤية ألسنة اللهب التي أنارت أجواء السماء من مكانٍ بعيدٍ.

أمسكت وان لينغ بفرع الشجرة، وظلّت مندهشةً قليلا، وبلغ الأمر بها حد نسيان استخدام فرع الشجرة في إطفاء النيران، وكانت ألسنة اللهب تشبه الحيوانات البرّيّة، تسرع إلى الأمام، وتصدر صوتًا مماثلًا لصوت الوحوش. انطلقت في القرية نداءات الاستغاثة والطوارئ، وتبعه صوت أحدهم يقول: «حريق». وفي الحال صاح معه عدّة أفرادٍ قائلين: «حريق». بعد وقتٍ قصيرٍ كانت القرية قد تحرّكت بأكملها تقريبًا، ولم يكن هناك سوى صوت أقدامهم تحت السماء. كانت وان لينغ تشعر بأنّها في حلمٍ، وظلّت تصطدم بأولئك القادمين لإطفاء النيران، وكادت تسقط عدّة مرّاتٍ فوق الأرض.

انطفأت النيران أخيرًا قبل أن تصل إلى الممرّ الترابيّ الطويل، وبجانبه كانت هناك قطعة أرضٍ نضجت محاصيلها، وكانت قد أوشكت على الحصاد. عندما استمرّ الجميع في المغادرة وهم يطؤون الجمر السّاخن، كانوا يمرّون بجانب وان لينغ دون أن يتكلّموا؛ لكنّهم كانوا ينظرون إلى عينيها في برودٍ، وكانت السماء قد أظلمت؛ بل بدت أشد ظلمة.

كانت دموعها الباردة تنهمر ببطء، وفي مكانٍ بعيدٍ عند القبر وقف فجأةً شبحٌ أسود؛ فصرخت وان لينغ قائلةً: «عفريت!»، ثمّ استدارت وجرت هاربةً، ووجدت جدّتها قادمةً نحوها من مكانٍ قريب، فارتمت في أحضانها، وكانت ترتعش دون توقّف من رأسها حتّى قدميها وهي تقول: «عفريت، عفريت!».

ظلّت جدّتها تمسح على ظهرها بيدها الخشنة الجافة وهي تسألها: «أين هو العفريت؟!». وكانت جدّتها تعرف دون أن تنظر أنّ ذلك العفريت هو الولد ذو الساقين الطويلتين.

اتجهت وان لينغ مع جدّتها إلى المنزل وهي تمسك بيديها، وفي الطريق، كانتا تتساندان على بعضهما. لم توجّه الجدّة كلمة لومٍ واحدةٍ لحفيدتها، لكن عندما وصلا إلى ضفة النهر، سألتها جدّتها: «أين هي علبة الكبريت؟»؛ فتحسّست وان لينغ جيبها؛ فقالت لها الجدّة: «أعطيني إيّاها»؛ فأخرجت وان لينغ علبة الكبريت، ووضعتها في يد جدّتها. هزّت الجدّة العلبة؛ فأصدرت أعواد الكبريت بداخلها صوت اصطدامٍ، وبعدها ألقت الجدّة علبة الكبريت في النهر بكلّ قوّتها.

لمع نور القمر في نهاية النهر، حتى بدا بسطح المياه طريقٌ ممهّدٌ من الفضّة، وكانت علبة الكبريت تطفو كالقارب الصغير.

ظلّت وان لينغ تمشي مع جدّتها، وبدأت الجدّة تدندن، وصوتها يدلّ على كبر سنّها، ولا تكاد تكون هناك نوتةٌ موسيقيةٌ واحدةٌ صحيحة ودقيقة. ظلّت الجدّة تمشي حتّى شعرت بالإجهاد؛ فتقطّعت أنفاسها. لا تعرف الجدّة إلى أيّ عامٍ تعود الأوبرا التي تغنّيها، فلا تستطيع وان لينغ أن

تفهم أيّ جملةٍ منها، وليس من الضروريّ أن تفهم الجدّة ما تغنّيه؛ لكن وان لينغ شعرت ببرودةٍ وحزنٍ عميقين لا مهرب منهما ولا ينتهيان. كانتا تمشيان ببطءٍ شديد، وعندما وصلتا إلى القرية كانت مصابيح المنازل قد أضيئت بالفعل منذ وقتٍ طويل.

(7)

مرضت وان لينغ ولم تذهب إلى المدرسة لمدّة أربعة أو خمسة أيّام. لم تكن مصابةً بالحمّى، ولا تشعر بألمٍ في أيّ مكانٍ بجسدها، لكنّها كانت تشعر بضعفٍ عامّ، وبعدم القدرة أو الرغبة على القيام بأيّ شيء، وكانت ترقد اليوم بأكمله فوق السرير.

وفي صباح ذلك اليوم، لم تسمح لها جدّتها أن تظلّ راقدةً فوق السرير، وقالت لها: «استندي إليّ وانهضي، ولا ترقدي بهذا الشكل مرّةً أخرى».

شربت وان لينغ القليل من الشوربة التي أعدّتها جدّتها، فتحسّنت قليلًا، وتحسّن مزاجها كثيرًا. كانت وان لينغ قعيدة المنزل لعدّة أيّامٍ متواصلةٍ، وفي هذه اللحظة فكّرت في الخروج قليلًا.

كانت الأرض دافئةً بسبب شمس الربيع، ودخل كلّ ما على الأرض في موسم النموّ، وذهب معظم البالغين في القرية للعمل في الأراضي، أمّا بقيتهم فكان سمعهم ثقيلًا وبصرهم ضعيفًا، وذهب جميع الأطفال إلى المدرسة، وحتّى الكلاب ذهبت مع أصحابها إلى الأراضي. لا يوجد بالقرية أيّ صوتٍ باستثناء صوت الخنزير ونقنقة الدّجاج اللّذين يصدران في بعض الأحيان، ولم تشعر وان لينغ بهذا الهدوء من قبل.

ظلّت وان لينغ تمشي ببطء بمحاذاة زقاق القرية، وأتى كلبٌ أسود ورافقها فترةً طويلةً، ثمّ جرى بعيدًا.

مشت وان لينغ دون وعيٍ، حتّى وجدت نفسها أمام منزل تشويتشين، وتقدّمت عدّة خطواتٍ أخرى للأمام حتّى رأت شجرة العطر. كانت وان لينغ لم تر الشجرة منذ وقتٍ طويل. ظلّت واقفةً في ذلك المكان وهي مترددةً، فهل تتقدّم للأمام أم لا؟ وهل يحقّ لها رؤية الشجرة أم لا؟ لم تعط لنفسها إجابةً محدّدةً واضحةً؛ لكنّها تقدّمت إلى الأمام، وظهرت شجرة العطر أمام عينيها، وفي تلك اللحظة نظرت بعينين خائفتين مرتعبتين، فقد احترقت كومةٌ من القصب أسفل شجرة العطر. كانت تلك كومة جمعها والد تشويتشين مؤقّتًا أسفل الشجرة، فكان ينوي استخدامها في صنع الحصائر؛ لأنّ الحصائر التي يستخدمونها حاليًا صارت قديمةً وممزّقةً.

ارتعشت وان لينغ لا إراديًا لحظة أن رأت النيران، وأصابتها نوبة دوارٍ؛ فسقطت أرضًا. أغلقت

عينيها بعض الوقت، وعندما فتحتهما وجدت أنّ النيران قد اشتدّت، فأدارت رأسها وجرت بأقصى قوّتها نحو المنزل. وظلّت تجري حتّى تراءى مشهد احتراق شجرة العطر، والتفاف أوراقها وسط النيران أمام عينيها. وتخلّل هذا المشهد مشهدٌ آخر رأته وان لينغ من قبل، هو تساقط أزهار شجرة العطر تباعًا؛ فتوقّفت وأدارت جسدها سريعًا، ثمّ جرت نحو الشجرة.

بدأت وان لينغ تصيح وهي ترتعش وتقول: «حريقٌ!». وفجأةً، بحّ صوتها، وعندما واصلت الصراخ، لم يسمع صوتها أحدٌ غيرها، حتّى لم تستطع أن تسمع كلّ ما تقوله. لم يستجب أحدٌ لندائها في هذه القرية الفارغة، فهل تجرى إلى الأراضي الزّراعيّة لنداء الكبار؟ لكن ستتحوّل الشجرة إلى كومة رمادٍ لو انتظرت استجابة الكبار لندائها؛ فوقفت للحظةٍ، وبعدها لم تعد خائفةً؛ فجرت إلى فناء منزل تشويتشين، وأخذت دلو المياه الذي كان بجانب الخزّان، ووضعته داخله. كان كلّ مَن رأى وان لينغ وهي تحمل دلو المياه الممتلئ حتّى آخره وتتّجه نحو شجرة العطر لا يصدّق عينيه؛ فكيف لهذه الفتاة الضّعيفة أن تحمل مثل ذلك الجردل الممتلئ بالمياه وتجري به؟!

سكبت وان لينغ المياه بشكلٍ صحيحٍ على أكثر مكانٍ مشتعل، وسمعت صوت ارتطام المياه بالنيران. فاختفت تلك النيران فجأةً، وتصاعد الدخان. رفعت الجردل الفارغ، واتجهت نحو الخزّان مرّةً أخرى، وظلّت تسكب المياه فوق كومة القصب المشتعلة؛ فهدأت ألسنة اللهب قليلًا.

لم تشتعل النيران بثلثي كومة القصب، لكن من الممكن أن تشتعل بها ألسنة اللهب في أيّ وقتٍ، لكنّ مياه الخزّان قد نفدت.

ظلّت وان لينغ تصرخ قائلةً: «حريقٌ!».

كانت تصرخ كأنها تتحدّث مع نفسها. وأخذت تنظر إلى ألسنة اللهب المتصاعدة؛ فبكت، ولم يمرّ أحدٌ من جانبها، كأنّها بقيت وحيدةً في هذا العالم. بدأت ألسنة اللهب تتكاثر وتتصاعد أمام عينيها، فلم يكن أمامها إلّا أن تمسك بدلو المياه وتتّجه نحو النهر، لكنّها فقدت قوّتها وقدرتها على حمل دلو المياه والصعود لأعلى، فوضعت دلو المياه فوق السّلّم وأخذت تلهث، وعندما رفعت رأسها ونظرت إلى شجرة العطر اكتشفت أنّ الدخان بدأ يتلاشى. كانت تعرف أنّ تلاشي الدخان بسبب اشتعال النيران من جديد؛ فجلست القرفصاء واحتضنت دلو المياه بين ذراعيها، وبدأت تتسلّق درجات السّلّم درجةً تلو الأخرى.

قمعت مرّةً أخرى ألسنة اللهب المضادّة. وداومت على تعبئة خمسة دلاءٍ من مياه النهر، وبينما كانت صاعدةً على السّلّم وهي تحمل الجردل السادس بجهد شديد، انزلق الجردل من بين

أحضانها، وسقط على السلّم وتكسّر في الحال، وسالت المياه على درجات السلّم كالشلّال.

جلست وان لينغ على السلّم تنظر إلى مياه النهر وهي تتدفّق نحو الشرق، كأنها نسيت حريق شجرة العطر، وكأنّ شيئًا لم يحدث. طفا غصن شجرةٍ قويٍّ وطويلٍ أمامها، وعندما رأته وقفت كأنّها تذكرت شيئًا ما، وقفزت عدّة درجاتٍ من السلّم، وارتمت داخل المياه، وأمسكت بغصن الشجرة، ثمّ تسلّقت حتّى وصلت إلى الشّاطئ وهي ترفع الغصن، وأسرعت نحو ألسنة اللهب التي لم تُطفأ بعد. وبدأت تضرب ألسنة اللهب بذلك الغصن كالمجنونة، وكانت عيناها مفتوحتين حتّى آخرهما، والرّماد والشّرار يتطايران معًا، ودخلا عدّة مرّاتٍ في عينيها.

وأخيرًا مرّ الجدّ فانغيا وهو يدفع قاربًا صغيرًا، ورأى المنظر أسفل شجرة العطر؛ فأخذ يصرخ قائلًا: «حريقٌ»، وهو يربط قاربه الصغير بسرعةٍ عند الشّاطئ. سمع واحدٌ من أهل القرية في الحقل البعيد تلك النداءات بوضوح؛ فقذف أدواته وجرى نحو القرية، وبعد وقتٍ قصيرٍ صاح عددٌ كبيرٌ من الأشخاص قائلين: «حريق!». لكن في الواقع لم ير أحدهم الحريق، وبدأ يتساءل الكثير منهم: «أين الحريق؟ أين الحريق؟». وفي النهاية قال أحدهم بوضوحٍ: «أسفل شجرة العطر!». وعندما أسرع أهل القرية، كانت لا تزال وان لينغ تضرب النيران.

انطفأت النيران بمساعدة الجدّ فانغيا، وكان أهل القرية يستخدمون الأوعية -أو أيّ أداةٍ تُحمل بها المياه- في تعبئة المياه من النهر وسكبها تباعًا على الحريق أسفل الشجرة. بعد أن انطفأت النيران تمامًا، انتقل أهل القرية لرؤية وان لينغ؛ فقد صار شعرها أصفر ومحروقًا ومجعدًا، وثُقبت ثيابها بفعل الحريق، واسود جلدها إلى اللون الأسود بسبب الرّماد الرّطب، حتّى وجهها صار أسود اللون، وابيض لون عينيها.

قال الجدّ فانغيا لأهل القرية: «يجب أن تشكروا تلك الفتاة؛ فلولا وجودها...». ثمّ رفع الجدّ رأسه وألقى نظرةً على شجرة العطر، ثمّ أردف قائلًا: «لكانت هذه الشجرة قد انتهت».

احترقت عدّة أماكن من جذع الشجرة، كما ذبلت بعض الأوراق المتدلّية من الشجرة لمكانٍ منخفضٍ بفعل الدّخان؛ بل احترق بعضها، ولكن عند إلقاء نظرةٍ إلى الشجرة نجد أنّها بحالةٍ جيّدةٍ، وأساسها سليمٌ، فتحوّلت أنظار جميع الموجودين إلى وان لينغ. كانت جميع النّظرات تحمل مشاعر الأسف والشّكر، ويحمل بعضها المدح والثّناء.

عادت تشويتشين من المدرسة مسرعةً، وبعد أن سمعت كلّ ما حدث، جرت إلى الغرفة، وحملت طستًا ومنشفةً نظيفين وجرت نحو ضفة النهر، وبعد وقتٍ قصيرٍ عادت حاملةً الطست معبأً بالمياه النظيفة، واتجهت به نحو وان لينغ، وفي تلك اللحظة، همس أحد الموجودين قائلًا:

«هل من المحتمل أن تكون هي من أشعل تلك النيران؟».

على الرغم من أنّ ما قاله ذلك الشخص كان بصوتٍ هادئ، فإنّ كلّ الحاضرين قد سمعوه، وفجأةً تغيّرت نظراتهم إلى الفتاة كأنّهم تذكّروا منظر وان لينغ وهي تلعب بالنيران، ومشهد حريق البراري. كانوا ما زالوا ينظرون إليها، لكن تغيّرت مشاعر تلك النظرات، تمامًا مثل السماء الدافئة التي تهبّ فيها الرياح الشديدة فجأةً؛ فوجّهوا إلى وان لينغ نظرات الشّك واللّوم.

في البداية ارتعشت وان لينغ كأوراق الذرة في مواجهة الرياح الشديدة، وبعد ذلك أحنت رأسها، وعبرت الجميع وتركتهم، واتجهت نحو المنزل متعثّرة الخطى، وصعدت فوق السّرير باكية ونامت. لم تزعجها جدّتها وظلّت دائمًا بجانبها؛ لكنّ وان لينغ ظلّت نائمةً واستيقظت في المساء. جهّزت الجدّة وعاءً كبيرًا من المياه السّاخنة، وكانت قد وضعت حوض الاستحمام منذ وقتٍ طويلٍ في غرفة وان لينغ. خلعت وان لينغ ثيابها بتعليماتٍ من الجدّة، ووقفت عارية الجسد داخل حوض الاستحمام، فأخذت الجدّة بعضًا من الماء السّاخن، وبدأت تسكبه ببطءٍ على رأس وان لينغ. مرّت المياه السّاخنة عبر لفائف شعرها، ثمّ سالت على وجهها، فأحنت رأسها، وبدأت تبكي وهي تقول: «لم أشعل النيران». كانت جدّتها تغسل لها شعرها وهي تقول لها: «أنا أعرف»؛ فقالت وان لينغ: «حقًا، لم أشعل النيران»؛ فأخذت الجدّة مرّةً أخرى من المياه السّاخنة، وسكبتها على رأسها وهي تقول: «أنا أعرف». ظلّت وان لينغ واقفةً داخل حوض الاستحمام، تخضع بأدبٍ لتنظيف جدّتها لها.

(8)

بعد ثلاثة أيّامٍ من الحادث، ذهبت تشويتشين إلى ضفة النهر حتّى تغسل الخضراوات، وفجأةً مدّ الولد ذو الساقين الطويلتين رأسه من بين عيدان القصب الملتفة؛ فارتعبت تشويتشين؛ لكن لم تسقط سلّة الخضراوات التي كانت في يدها فوق درجات السّلّم. وفي لمح البصر اختفى ذو الساقين الطويلتين تمامًا، ولم يمض وقتٌ قصيرٌ حتّى ظهر مرّةً أخرى فوق تشويتشين؛ فنظر إليها من أعلى، وقال لها جملةً بمنتهى الرّضا عن النّفس وهي: «أنا من أشعل النيران!».

بدت علامات الدهشة والحيرة على وجه تشويتشين؛ فقال لها ذو السيقان الطويلة: «من طلب منكم ألا تسمحوا لي بهزّ الشجرة؟! أردت أن أحرق تلك الشجرة! أحرق هذه الشجرة! تغضبون منّي بسبب قدميّ المتسختين». ظلّ يتحدّث، ورفع قدمه سوداء اللون ليتفحصها ثمّ قال: «ماذا بها؟». فجأة تذكّرت تشويتشين أنّها في ذلك اليوم، بعدما غادر الجميع، كانت تساعد والديها في جمع الرماد الذي تكوّن أسفل الشجرة نتيجة الحريق، فرأت قبعةً من القشّ المحطّم، وحين

رأتها عرفت أنها قبعة ذي الساقين الطويلتين، فرفعت قدمها وركلتها بعيدًا، وجرفتها الرياح إلى داخل النهر. وعندما نظرت تشويتشين جيدًا، وجدت أنّ ذا الساقين الطويلتين الذي يرتدي قبعته طوال العام، لا يرتديها الآن. هناك فقط شعره غير المرتّب.

نظر ذو الساقين الطويلتين إلى تشويتشين وهي تنظر إلى رأسه وقال: «لقد أضعت قبعتي أسفل شجرة منزلكم. في ذلك اليوم استخدمت قبعتي كمروحةٍ حتى يشتدّ الحريق، وفجأةً اشتدّ الحريق وحرق شعري». أحنى ذو الساقين الطويلتين رأسه وشدّ بيده شعره المحروق من الجانب، وقال: «لقد أسقطت القبعة وهربت حتى أخيف الناس». أخرج ذو الساقين الطويلتين علبة كبريتٍ من جيبه وفتحها، وأخذ منها عود كبريتٍ، ووقف فوق علبةٍ من ملح البارود، وضغط بالإصبع الأوسط ليده اليسرى على طرف عود الكبريت، وسحب بأصابع يده اليمنى؛ فسمع صوت اشتعال النيران، وطار عود الكبريت المشتعل في الهواء، وبعدها سقط لهبٌ يمشي على الأرض.

انحنت تشويتشين ووضعت السّلّة فوق الأرض، ثمّ رفعت رأسها ببطءٍ، وفجأةً اندفعت نحو ذي الساقين الطويلتين، الذي تفاجأ ولم يستطع تحاشيها، وسقط أرضًا عندما أراد الجري هاربًا، ولم يساعده الوقت للهروب، وكانت تشويتشين قد هجمت عليه بالفعل، وأخذ يتلقّى لكماتها الكثيفة كقطرات المطر، وحاول أن يدافع عن نفسه، لكنّ تشويتشين كانت تمسكه بإحكامٍ؛ ممّا جعله عاجزًا عن التّحرّك، وكان فقط يستطيع أن يمسك رأسه بيديه ويصرخ عاليًا.

ظلّت تشويتشين تضرب ذا الساقين الطويلتين، وفجأةً غُضّت بالبكاء، وظلّ صوت بكائها يرتفع أكثر فأكثر، وبعد أن لكمته عدّة لكماتٍ عنيفةٍ، وقفت وركلته بقدمها، ثمّ جرت إلى المنزل.

(9)

في ليلة الحادث، قالت وان لينغ وهي مستلقية بجانب جدّتها: «لا أريد الذّهاب إلى المدرسة». لم تقل الجدّة أيّ كلمة، بل مدّت ذراعيها واحتضنتها، وفي صباح اليوم التّالي، ذهبت الجدّة إلى منطقة ياوماتي التي تبعد عشرين كيلومترا، حيث منزل شقيقتها. وفي المساء عادت إلى المنزل، وبعد تناول وجبة العشاء، قالت الجدّة: «إنّ شقيقتي لديها مجموعةٌ كبيرةٌ من الأحفاد، وترغب -منذ وقتٍ طويلٍ- في أن ننتقل للعيش معهم، ويوجد هناك الكثير من الأماكن التي يمكن أن نعيش بها، كما أنّ خالك يشغل منصب مدير المدرسة الابتدائيّة هناك، فيمكن أن تتعلّمي في المدرسة التي يعمل بها. بعد يومين سيأتي قاربٌ من هناك ليساعدنا في الانتقال».

جاء جميع أهل القرية تقريبًا إلى منزل وان لينغ، وذلك عندما وصل القارب وتوقّف داخل

النهر. كان أهل القرية يعتذرون بشدّة للجدّة وأيضًا لوان لينغ، ولم يتكلم الكثير منهم كلمة واحدة، بل كانوا يحنون رؤوسهم وهم يشعرون بالذنب وتأنيب الضمير.

كانت وان لينغ وجدّتها تجلسان في صمت فوق مقعدٍ خشبيٍّ طويل، وانحنى عمدة القرية أمام الجدّة وقال لها: «أعتذر إليك»، والتفت أيضًا إلى وان لينغ وقال لها: «أيّتها الطّفلة، يعتذر إليك جميع أهل القرية، فلتسامحي أجدادك وأعمامك وأشقّاءك وشقيقاتك». وفي منتصف اللّيل، بدأ الجميع يغادر الواحد تلو الآخر.

في الصباح الباكر، اكتشف الذين يستيقظون مبكرًا أنّ قاربًا كبيرًا أتى من منطقة ياوماتي قد أخذ وان لينغ وجدّتها وأمتعتهما ورحل، ووُضع القفل على باب منزلهما؛ فانتشرت الأخبار سريعًا، واستيقظ أهل القرية بعد وقتٍ قصيرٍ، وسرعان ما تجمّع العديد منهم في زقاق القرية، وتنبؤوا بأنّ ذلك القارب لم يذهب بعيدًا، ومشوا تباعًا بمحاذاة الشّاطئ.

عندما أشرقت الشمس رأوا القارب. كان هناك عددٌ غير واضح من الأطفال يختلطون بجموع اللّاحقين، وعندما صاحت تشويتشين قائلةً: «وان لينغ»، صاح أيضًا باقي الأطفال قائلين: «وان لينغ!». وظلّ الأطفال يصيحون ويجرون دون توقّفٍ؛ لكنّ القارب كان لا يزال يواصل تقدّمه إلى الأمام.

كانت وان لينغ وجدّتها جالستين في مقدّمة القارب؛ فقد ودّعا تلك القرية الجميلة وتلك الحقول والبراري الرائعة، وكانتا تنظران إلى مكانٍ بعيدٍ واسعٍ؛ لكنّ هتافات الأطفال جعلت وان لينغ تدير رأسها وتنظر خلفها؛ فوجدت عددا كبيرًا من أهل القرية يلحقون بهم على طول ضفة النهر، وكان بعضهم يجرون سريعًا، وكان هناك أحد عشر أو اثنا عشر طفلًا يمشون بالتوازي مع القارب، والشمس في كبد السماء.

بَحّ صوت تشويتشين وهي تنادي وان لينغ، وفي مكانٍ ليس ببعيدٍ، كان هناك جسرٌ فوق النهر، وتحت قيادة تشويتشين جرى عددٌ من الأطفال وهم يلهثون حتّى وصلوا إلى الجسر، والآن هم في مواجهة القارب، وأيضًا في مواجهة وان لينغ والجدّة. وبعد أن نادوا وان لينغ مرّةً أخرى، شعروا أنّ القارب لن يتوقّف، فلم ينادوا مرّةً أخرى، وانبطح الكثير من الأطفال على حاجز الجسر ينظرون إلى وان لينغ، وبكت بعض الفتيات.

كانت تشويتشين تنظر إلى وان لينغ، ويدها اليمنى المرفوعة تتمايل ببطءٍ دون توقّفٍ. كان القارب قادمًا في اتجاه الجسر الكبير، وفجأةً اكتشف الأطفال أنّ تشويتشين تسلّقت حاجز الجسر، وظلّت ترتعش تحت السماء، وفي تلك اللحظة لم يعد أحدٌ ينظر إلى القارب، بل تحوّلت

جميع الأنظار إلى تشويتشين.

ظلّت تشويتشين واقفةً هكذا، ولا أحد يعرف ما تنوي فعله، وعندما وصل القارب إلى الجسر الكبير، فتحت تشويتشين ذراعيها وسقطت من فوق الجسر كالطيور، وسقطت في النهر؛ مقا أثار رذاذ المياه؛ فوقفت وان لينغ على الفور، وجرت نحو مقدّمة القارب وانبطحت فوقها، ونظرت إلى المياه، فكانت تشويتشين قد ارتفعت إلى سطح المياه؛ فمدّت لها وان لينغ يدها.

قفز ثلاثة أطفالٍ آخرين إلى المياه، وعلى الفور قفز جميع الأطفال الذين يجيدون السّباحة، وامتلأت المياه بالرذاذ.

(10)

تتساقط الأمطار هذا العام بشكلٍ جيّدٍ؛ فكلّ يومين أو ثلاثة أيام تتساقط الأمطار بشكلٍ متوسّطٍ، كما أنّ شجرة العطر التي تضرّرت قليلًا، لم تسقط أو تذبل؛ بل ظهرت عليها الحيويّة أشد من السّنوات الماضية؛ ففي شهر أغسطس تتفتّح أزهارها يوميًا.

يتفحّص والد تشويتشين الشجرة مرّتين أو ثلاث مرّاتٍ يوميًا، وينتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي تتفتّح فيه جميع أزهار الشجرة، وأخيرًا جاء ذلك اليوم.

في الصباح الباكر وصلت فتيات صغيرات نظيفات -بقيادة تشويتشين- إلى منزل وان لينغ. جئن ليدعينها حتّى تذهب معهنّ للمشاركة في هزّ الشجرة. لكن لا أحد يعرف لماذا كانت وان لينغ تنظر إلى جدّتها دائمًا.

دخلت الجدّة إلى الغرفة، وبعد وقتٍ قصيرٍ خرجت وهي تحمل سترةً جديدةً وزوجًا من الأحذية الجديدة أيضًا. ساعدتها تشويتشين في ارتداء السّترة، وظللن يقلن: «إنّها سترةٌ جميلةٌ!». وكانت الجدّة هي التي ساعدت وان لينغ في ارتداء الحذاء. جلست وان لينغ فوق الكرسيّ، وأخذت جدّتها الحذاء لتساعدها على ارتدائه، وقالت لها: «أيتها الفتاة، اجلسي على الكرسي ولا تتحركي، فلتنظري إلى شكلك، تبدين مثل العروس»؛ فضحكت الفتيات.

كالمعتاد، لا يهمّ إن كانت أرجلهم نظيفة أم لا، فيجب أن يجلس جميع الأطفال عند ضفة النهر؛ حتّى يغسلوا أقدامهم في مياه النهر؛ فجلست مجموعاتٌ مكوّنةٌ من خمس أو ستّ فتياتٍ في صفٍّ واحدٍ، ووضعوا أرجلهم داخل النهر، يلعبون ويثيرون رذاذ المياه مثل الأسماك.

حان وقت هزّ الشجرة؛ فأسرع الأطفال إليها بعد أن نظّفوا أرجلهم، ووضعوا أيديهم على جذعها، ووضعت وان لينغ يديها عدّة مرّاتٍ؛ لكنّها كانت تبتعد بسبب الزحام والتّدافع؛ فأفسحت

تشويتشين وفتاةً أخرى طويلة القامة مكانًا، ونادت تشويتشين على وان لينغ قائلةً: «أسرعي!»؛ فذهبت ووضعت يديها على جذع الشجرة.

كانت أقدام الأطفال تقف على الحصيرة الجديدة، بينما كانت قدم وان لينغ أشد الأقدام بياضًا ونظافة.

حين يصيح الكبار، يهزّ الأطفال الشجرة بكلّ قوّتهم، ويرون الأزهار الذهبيّة لشجرة العطر تتساقط واحدةً تلو الأخرى.

رفع جميع الأطفال تقريبًا رؤوسهم؛ حتى يروا الأزهار المتساقطة، لكن وان لينغ كانت هي الوحيدة محنية الرأس.

كانت الأزهار المتساقطة فوق الحصيرة حيويّةً جدًا؛ مما جعلها تشعر بأنّ تلك الأزهار تستريح مؤقّتًا لفترةٍ قصيرةٍ، ثم ستطير بعيدًا في وقتٍ قريب.

ظلّت تنظر إلى تلك الأزهار الغامضة، التي أخذ غموضها يتحول إلى اللون الذهبي!

كُتبت النسخة المعدلة في سكن العلم الأزرق بجامعة بكين في العاشر من أغسطس عام 2014 الساعة الثالثة والنصف عصرًا

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التكريمات والجوائز

التي حصل عليها المؤلف

جائزة أندرسن الصينية، فبراير 2004.

جائزة أندرسن العالمية، أبريل 2016.

القصص القصيرة:

- جائزة أدب الطفل للأعمال المتميزة عن قصته: «القوس»، في فبراير عام 1982.

- جائزة (مرحلة الطفولة) للقصة القصيرة عن قصته: «أحد عشر خيط من القماش الأحمر»، في ديسمبر 1984.

- جائزة «شباب الشرق» للأعمال المتميزة عن قصته: «القفازات»، في ديسمبر 1985.

- جائزة «أدب الناشئة للأعمال المتميزة» عن قصته: «القلعة القديمة»، في ديسمبر 1985.

- جائزة «أدب الناشئة للأعمال المتميزة» عن قصته: «البقرة الحمقاء»، في ديسمبر 1986.

- الجائزة الوطنية لأدب الطفل المتميز في دورتها الأولى عن قصته: «وداعًا يا نجمتي الصغيرة»، في أبريل 1988.

- المركز الأول لجائزة كتب الأطفال الأدبية والفنية المتميزة في العصر الحديث بالصين عن مجموعته القصصية القصيرة: «القلعة القديمة وسط الضباب»، في مايو 1989.

- جائزة التميز لقصص الناشئة على جانبي المضيق عن قصته: «حلزون النهر»، في ديسمبر عام 1992.

- جائزة (بينغ شين) للأعمال الأدبية الجديدة بأدب الطفل عن قصته: «الوردة الزرقاء»، في نوفمبر 1993.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حصل على الجائزة السنوية لأفضل عشرة كتب من جريدة (نيو تاميز الصينية) عن مجموعته القصصية القصيرة: «القرع الأحمر»، في فبراير 1995.

- اختارت جمعية الرواية الصينية قصة «ذيل صغير» عام 2014 ضمن قائمة «التصنيفات السنوية للقصص».

- جائزة «الرواية المختارة لكل عامين»، عن قصته: «العجلة الخامسة»، في عام 2014.

الراويات:

- الميدالية الذهبية لجائزة (سونغ تينغ لينغ) لأدب الطفل في دورتها الثالثة عن روايته: «الماعز لا يأكل من عشب الجنة»، في ديسمبر 1992.

- المركز الأول من الجائزة الوطنية التقييمية لأعمال أدب الطفل من جمعية الكتاب الصينيين عن روايته: «الماعز لا يأكل من عشب الجنة»، في فبراير 1993.

- جائزة (بينغ شين) الأدبية في دورتها التاسعة عن قصته: «بيت من القش»، في أغسطس عام 1998.

- الجائزة الثانية لجائزة الكتاب الوطنية في دورتها الرابعة عن روايته: «القرميد الأحمر»، في أكتوبر 1999.

- الجائزة الوطنية لأدب الطفل المتميز في دورتها الرابعة، والميدالية الذهبية لجائزة (سونغ لينغ تشينغ) لأدب الطفل في دورتها الخامسة عن رواية: «بيت من القش»، في مايو عام 2000.

- جائزة الفنون الأدبية ببكين عن روايته: «القرميد الأحمر»، عام 2000.

- جائزة (سونغ لينغ تشينغ) لأفضل أعمال أدب الطفل في دورتها السادسة عن روايته: «قن نياو»، في أكتوبر عام 2003.

- الجائزة الوطنية لأدب الطفل المتميز عن روايته: «الذرة الرفيعة»، في أكتوبر عام 2004.

- الجائزة الفخرية التقييمية لمجموعة من الأعمال الأدبية في الذكرى الخامسة والخمسين للاحتفال بتأسيس جمهورية الصين الشعبية عن روايته: «الذرة الرفيعة»، في ديسمبر عام 2004.

الجوائز الشرفية:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- صنفت جريدة (نيو تاميز الصينية) روايته «برونز وعباد الشمس» ضمن أفضل عشرة روايات لعام 2005.

- الجائزة الصينية للنشر في دورتها الأولى عن روايته: «برونز وعباد الشمس»، في أكتوبر 2007.

- جائزة أدب الطفل المتميز في دورتها السابعة عن روايته: «برونز وعباد الشمس»، في ديسمبر عام 2007.

- جائزة الكتاب الرائع لمقاطعة جيانغسو وجائزة الأعمال الأدبية المتميزة بمشروع «الإبداعات الخمس» من قسم الدعاية المركزية للحزب الشيوعي الصيني عن روايته: «برونز وعباد الشمس»، في عام 2007.

- جائزة الكتاب الأكثر مبيعًا لعام 2006 من اتحاد فنغ هوانغ الإعلامي عن روايته «بيت من القش»، في عام 2007.

- الجائزة الوطنية للكتاب الصيني عن رواية: «الزجاج الأصفر - كتاب الملك»، في ديسمبر 2008، وفاز أيضًا بالجائزة المتميزة لأدب الطفل في دورتها الثامنة، في أكتوبر عام 2010 عن نفس الراوية.

- جائزة أفضل كتاب للأطفال لعام 2009 ضمن قائمة الكتب الصينية في «مؤتمر الإبداع التسويقي لصناعة الكتب» عن روايته: «ولدي بي كه» عام 2010 ، كما حصلت نفس الراوية على ترشيح من هيئة الدولة للإعلام والنشر ضمن أفضل مئة كتاب للناشئة في جميع أنحاء البلاد، وجائزة المنشورات المميزة لأدب الطفل بجمهورية الصين الشعبية في دورتها الثالثة، وجائزة الكتاب الأكثر مبيعًا ضمن التصنيفات السنوية لاتحاد نشر الكتب الصينية، والجائزة الأولى لأفضل كتاب في أدب الطفل تحريرًا بالست مقاطعات بشرق الصين.

- جائزة هيئة الدولة للإعلام والنشر لمشروع نشر ثلاثمئة كتاب أصلي عن روايته: «ولدي بي كه»، في عام 2011.

- جائزة (بينغ شين) لأدب الطفل وجائزة أفضل عشرة كتب أصلية صينية من عام 2006 لعام 2012، عن سلسلة «دينغ دينغ ودانغ دانغ»، في عام 2011.

- جائزة أكثر كتاب صيني مؤثر عن روايته: «دينغ دينغ دانغ دانغ - شارع الجمهور»، تحت رعاية شبكة شينخوا وجريدة (الكتاب الصيني) اليومية، في عام 2012.

- جائزة (أفضل 50 كتابًا للجمهور) من هيئة الدولة للصحافة والنشر عن روايته «دينغ دينغ دانغ دانغ - شارع الجمهور»، في عام 2012.

- الجائزة الوطنية المتميزة لأدب الطفل في دورتها التاسعة عن روايته: «الخروف الأعمى دينغ دينغ دانغ دانغ»، في عام 2013.

- جائزة (الكتاب الصيني النافع لعام 2013) من CCTV عن سلسلة: «دينغ دينغ دانغ دانغ»، في عام 2014.

- جائزة (أفضل 50 كتابًا للجمهور) من هيئة الدولة للإعلام والنشر بجمهورية الصين الشعبية، وجائزة (أكثر كتاب صيني مؤثر) من شبكة شينخوا، وجائزة (التاج لكتب الأطفال) من لجنة العمل على كتب الأطفال والناشئة بجمعية الناشرين الصينيين عن روايته: «عبور غابة القيقب»، في عام 2014.

- جائزة أفضل قصة للأطفال من الاتحاد الدولي لكتاب الطفل عن سلسلة: «دينغ دينغ دانغ دانغ»، في أبريل عام 2015.

- جائزة مشروع نشر الأدب والفنون الصينية الإبداعية المميزة عن روايته: «الختم الناري»، في عام 2015، وكانت الموضوع الرئيسي أثناء «الاحتفال بالذكرى السبعين لانتصار حرب المقاومة الشعبية الصينية ضد العدوان الياباني والحرب العالمية ضد الفاشية»، كما حصلت نفس الراوية على جائزة (بينغ شين) لأدب الطفل، ومن الكتب المرشحة لجائزة (ونجين) في دورتها الحادية عشرة، واختارتها جريدة (تينست بيزنس ديلي) كأفضل كتاب للحصول على جائزة (أفضل كتاب للأطفال)، واخترتها مجلة (الناشر) كـ (كتاب العام)، وصنفها موقع (دانغ دانغ الصين) ضمن أفضل عشرة كتب، وصنفتها جمعية النشر الصينية ضمن (أفضل ثلاثين كتاب سنويًا)، ورشحتها جريدة (قوانغ مينغ) ضمن قائمة الكتب التنويرية المعادية للحرب اليابانية، ورشحها (الاجتماع السنوي الوطني للقراءة لجمعية المكتبات الصينية) ضمن أهم خمسين كتاب يوصى بقراءتهم، ورشحتها شبكة بايدو من كتب الأطفال الموصى بها في (الذكرى السبعين لانتصار حرب المقاومة ضد اليابان ومكافحة الفاشية)، وصنفتها جريدة (بيزنز وايكلي) الأسبوعية ضمن أربعة وعشرين عملًا رئيسًا، ورشحها رؤساء التحرير ضمن كتب الإجازة الصيفية.

- اختيرت روايته: «الخروف الأعمى دينغ دينغ دانغ دانغ»، في أبريل عام 2016 ضمن قائمة التكريم السنوية للاتحاد الدولي لكتاب الأطفال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- منحه مركز بحوث الأدب الصيني المعاصر جائزة (المعلم يه شانغ تاو) في دورتها الثالثة عن روايته: «عيون اليعسوب»، في ديسمبر 2016.

- جائزة «تشن بوه تشوي» وجائزة شانغهاي لأفضل كتاب للأطفال في دورتها الثالثة، والميدالية الذهبية لجائزة الأفاق التقييمية الوطنية للأعمال الثقافية للأطفال والناشئة في دورتها الرابعة عن روايته: «الختم الناري»، في عام 2016. كما رشحتها هيئة الدولة للإعلام والنشر كواحدة ضمن أفضل مئة كتاب للناشئة في جميع أنحاء البلاد، خددت ضمن قائمة الكتب لنشاط القراءة الذي تنظمه المدارس الابتدائية والثانوية لمقاطعة شانسي المعروف بـ (السحر الأحمر)، وخددت ضمن قائمة الكتب لنشاط القراءة في الإجازة الصيفية بمقاطعة شاندونغ، ورشحتها المجموعة الوطنية الرائدة لأنشطة القراءة بمقاطعة جيانغسو ضمن أفضل أثنى عشر كتاب، ورشحتها جريدة (الشعب اليومية) ضمن أفضل مئة كتاب للقراءة، واختارها (شهر شنتشن للقراءة) ضمن (أفضل عشرة كتب للأطفال في هذا العام) من بين أفضل ثلاثين كتابًا.

- اختارت جريدة (تينست بيزنز ديلي) روايته: «عيون اليعسوب» ضمن (أفضل عشرة كتب سنويًا)، كما اختارتها جريدة (قراءة الكتب الصينية) كأفضل كتاب في الشهر، في عام 2016.

- رشحت جريدة (الشعب اليومية) رواياته: «بيت من القش» و«برونز وعباد الشمس» و«الماعز لا يأكل من عشب الجنة»، ضمن أفضل مئة كتاب عام 2016.

- جائزة (وو نشنغ أن للروايات) عن روايته: «عيون اليعسوب»، في ديسمبر 2017.

- جائزة (العمل المميز لعام 2017) من مجلة (الناشر) الأمريكية، وجائزة (فريمان الذهبية الأمريكية للأدب) عن روايته: «عيون اليعسوب»، في عام 2018.

- اختيرت روايته: «بيت من القش» في سبتمبر 2019 ضمن مجموعة من 70 رواية في ذكرى 70 عامًا من الصين الجديدة.

الكتب المصورة وسلاسل الكتب ومجمع الأعمال:

- جائزة الكتاب المتميز للنسخ الفصدرة للخارج عام 2010، عن رواية: «الدجاجة الحمقاء» (كتاب مصور)، في ديسمبر 2011.

- جائزة الطاحونة الذهبية الدولية الكبرى للكتاب المصور المبدع من لجنة التحكيم بمعرض شانغهاي الدولي لكتاب الطفل عن كتابه المصور: «الريش»، في عام 2013.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- جائزة الكتاب الصيني المتميز في دورتها الرابعة وجائزة (بينغ شين) لأدب الطفل عن كتابه المصور: «الجمال النقي لتساو ون شيوان» (سلسلة كتب)، في عام 2013.

- الجائزة الأولى لكتاب الطفل المتميز في ست مقاطعات بشرق الصين عن كتابه: «أعمال تساو ون شيوان» (مجمع لأعماله)، في عام 2014.

- الجائزة الحكومية للنشر في الصين عن كتابه المصور: «الجمال النقي لتساو ون شيوان» (سلسلة كتب).

- جائزة (تشين بوشوي الدولية للكتاب المصور لأدب الأطفال) عن كتابه المصور: «الدخان»، في نوفمبر 2015.

- اختارت مجموعة الصين للنشر والطباعة سلسلة كتابه: «الحمام» ضمن قائمة أفضل الكتب.

- الجائزة الأولى من (أفضل عشرة كتب مصورة مبدعة سَنَوِيًا) من مركز أبحاث طباعة الكتب المصورة في الصين عن كتابه المصور: «الصيف»، في عام 2015، كما صنفه موقع Dangdang.com ضمن التصنيف السنوي لأفضل عشرة كتب جديدة مبدعة، وأختاره موقع بايدو لإدراجه ضمن قائمة «الكتب الصينية الجيدة».

- جائزة معرض صربيا الدولي للكتاب المصور عن كتابه المصور: «الدخان»، في عام 2016، كما أدرج ضمن «المشروع الدولي لنشر الكتب الصينية» من هيئة الدولة للإعلام والنشر.

- الميدالية الفضية لنموذج العمل لجائزة ابتكار الصناعة الإبداعية عن السلسلة المصورة: «بذور صينية لزهور العالم»، في عام 2016.

- الجائزة الكبرى لمسابقة جائزة الكتاب المصور الدولية لجزيرة نانيي في كوريا الجنوبية عن كتابه المصور: «الدخان»، في عام 2017.

الأفلام:

- جائزة «تونغ نيو للفيلم الصيني» للسيناريو المتميز في دورتها الثامنة عن فيلم: «بيت من القش»، في يونيو 1999.

- جائزة الديك الذهبي للفيلم الصيني لأفضل سيناريو في دورتها التاسعة عشرة عن فيلم: «بيت من القش»، في أكتوبر 1999.

- جائزة الفراشة الذهبية، من لجنة التحكيم لمهرجان طهران السينمائي الدولي في دورته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرابعة عشرة، عن فيلم: «بيت من القش»، في عام 2000.

- جائزة (الأسد البرونزي) من مهرجان جيفوني السينمائي بإيطاليا في دورته الثالثة عشر عن فيلم: «بيت من القش»، في عام 2000.

- منحته لجنة تحكيم مختصة جائزة زهرة الزنبق للأفلام السينمائية في دورتها الثالثة عشرة عن فيلم: «المثلث»، في عام 2013.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المؤلف: تساو ون شيوان

- ولد تساو ون شيوان في يناير 1954 في مدينة يان بمقاطعة جيانغسو، وهو كاتب وباحث وأديب شهير، وأستاذ بقسم اللغة الصينية في جامعة بكين، ومشرف لطلاب الدكتوراه، وعضو رئاسة المجلس الوطني لرابطة الكتاب الصينيين في دورته التاسعة، ونائب رئيس رابطة كتاب بكين.

- بدأ مشواره الأدبي في الكتابة عام 1979، ومن أبرز أعماله الأدبية من الروايات: «بيت من القش» و«الذرة الرفيعة» و«القرميد الأحمر» و«قن نياو» و«برونز وعباد الشمس» و«الماعز لا يأكل عشب الجنة» وغيرها من الراويات. ومن القصص القصيرة: «الحقول الحزينة» و«القرع الأحمر» و«البحث عن الخلود» و«شجرة البرتقال الحلو» وغيرها من القصص القصيرة. ومن أعماله الأكاديمية: «دراسة حول الظواهر الأدبية في فترة الثمانينيات في الصين»، و«العالم الثاني»، و«دراسة حول الظواهر الأدبية في فترة أواخر العشرينيات في الصين»، و«باب الرواية» وغيرها من الأبحاث. وتُرجمت أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليابانية والكورية وحوالي سبعين لغة أخرى.

- حصل على جائزة الدولة للكتاب، وجائزة «مشروع الإبداعات الخمس» لأفضل عمل أدبي، والجائزة الوطنية لأدب الطفل المتميز، وحصل على الميدالية الذهبية لجوائز سونغ تشينغ لينغ لأدب الطفل، وحصل على جائزة بينغ شين للأعمال الأدبية الجديدة لأدب الطفل، وجائزة الكتاب المتميز السنوية للنسخ المُصدرة للخارج، وجائزة الفنون الأدبية ببكين، وغيرها من الجوائز المهمة.

- حصل على جائزة هانز كريستيان أندرسن العالمية للأدب لعام 2016، وهو أول أديب صيني يفوز بهذه الجائزة.

---

(1)غراب الماء أو الغاق: يستغله الصيادون الصينيون في صيد الأسماك نظرًا لوجود جراب في رقبة الطائر يستخدمه في تخزين الأسماك ولكي لا يلتهم الطائر نفسه الأسماك، يلف الصياد بعض الخيوط حول عنق الطائر.

(2)الجين وحدة قياس صينية تعادل نصف كيلوجرام.

(3)حيوان يتبع فصيلة «السنجاب» من رتبة القوارض، ويسمى فأر الجبل أو خنزير الأرض. أكبر حيوان في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فصيلته يعيش في الجحور، ويوجد في مناطق كثيرة من نصف الكرة الشمالية.

(4)نوع من النباتات يتبع الفصيلة النجيلية، وموطنه آسيا وأوروبا.

(5)هي قريةٌ مشتقة الاسم من شجر القيقب في اللغة الصينية؛ بسبب انتشار هذا الشجر في القرية.

(6)وحدة قياس صينية تعادل نصف كيلوجرام.